

شجرةُ الأماني
كاثرين آبلغيت
katherine applegate
مكتبة ٣٥٥
دار المنى

شجرةُ الأَماني

مكتبة 355

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

ISBN 978 91 87333 88 0

WISHTREE by Katherine Applegate

Illustrations: Charles Santoso

Originally published by Feiwel and Friends, an imprint of Macmillan USA. Published by arrangement with Pippin Properties Inc. through Rights People, London.

Bokförlaget Dar Al Muna AB

Box 127 18205 Djursholm, Sweden

w w w . d a r a l m u n a . c o m

كاثرين آبلغيت

شجرةُ الأَماني

katherine applegate

النّص العربيّ: سكينة إبراهيم

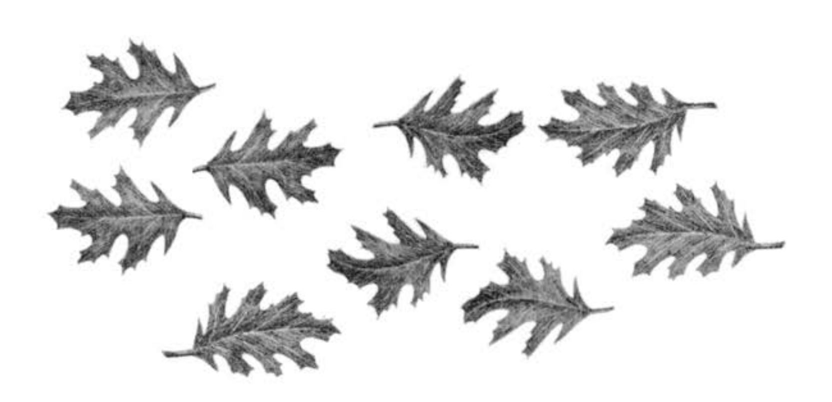


دار المنى

إلى القادمين الجُدد

و

المُرَحِّبين بهمْ



رِفقًا بالأَشجار!

إلى القُدماء تحدّثت
شجرةُ البلُّوطِ الناطِقةُ.
أمّا أنا،
فجميعُ الأشجار تُخاطِبني.
والحقائقُ التي أعرفُ،
كدَّسْتُها معًا.
لكن أولئكَ الذين يرُيدون أن يَحكوا وينشروا الخبرَ،
وأولئكَ الَّذين لا يُحسِنون الإصغاءَ،
لن يَسمعوا مقطعًا واحدًا
يخرجُ من شَفتيْ أيّ شجرةٍ.

ماري كارولين دافيس (1924)





1

التَّحدُّثُ مع الأشجارِ صعبٌ . نحنُ لا نحبِّذُ الدردشةَ كثيرًا .

هذا لا يعني أنّنا لا نقدرُ على القيامِ بأشياءَ مُدهشةٍ ، أشياءَ من المُحتمل أنكم لا تفعلونها أبدًا .

نُهدهِد صِغار البوم المُزغبة . نثبِّت أطرافَ الأشجارِ المُضعضَعة . ونقومُ بعمليةِ التّمثيل الضّوئي .

لكن مخاطبةَ النّاسِ؟ لا ، ليس كثيرًا .

بل حتّى حاولوا أن تجعلوا شجرةً تروي طُرفةً جيّدةً .

الأَشجارُ تتكلّم مع بعضِ المخلوقاتِ ، المخلوقاتِ الّتي نعرفُ أنّنا يمكنُ أنْ نثِق بها . نتحدّث مع السّناجبِ المُتهوّرة . نتحدّث مع

الديدان الكادحةِ . نتحدّث مع الفراشاتِ المُبهرجة والعثّ الخجولِ .

الطُّيورُ؟ إنّها مُبهجةٌ . والضفادعُ؟ مُشاكسةٌ لكنها طيبةُ القلبِ . الأفاعي؟ أوه ، لَغْوٌ فظيعٌ .

الأَشجارُ؟ ما اجتمعتُ قطّ بشجرةٍ لم أحبُّها .

حسنًا ، لا بأس . هناك تلك الجميزةُ عند الزّاويةِ في آخرِ الشّارع . صاخبةٌ ، وتثرثرُ بلا انقطاع تلك الشَّجرةُ .

والنّاسُ ، هل نُخاطبهم حقًا؟ نتَكلّمُ معهم حقًا؟ نستخدمُ في التواصلِ معهم مهاراتِ غالبيتِهم في النُّطق؟

هذا سؤالٌ وجيهٌ .

علاقةُ الأشجارِ بالبشرِ ، هي عمومًا ، مُعقدةٌ نوعًا ما . في دقيقةٍ ما تُعانقوننا . وفي دقيقةٍ أخرى تُحوّلوننا إلى طاولاتٍ وأدواتٍ لفحصِ اللسان .

لعلّكم تتساءلون لماذا لم تتطرّق صفوفُ العلوم إلى حقيقةِ أنّ الأشجارَ تتكلّم ، خلالَ تلك الدروسِ عن : «الطبيعةُ صديقتُنا» .

لا تُلقوا اللومَ على أساتذتكِم . هم على الأرجحِ لا يعرفون أن الأشجارَ يمكن أن تنطقَ . مُعظم النَّاس لا يعرفون .

على الرّغمِ من ذلك ، إذا حدثَ ورأيتم أنفسَكم تقفون قربَ

شجرةٍ تبدو ودودةً بشكلٍ خاصّ ، في يومٍ تشعرون أنّه ميمونٌ على نحوٍ غير عادي ، لا يَضِيركم أن تُرهفوا السَّمعَ .

الأشجارُ لا يُمكنها أن ترويَ النُكات .

لكنّنا بالتأكيد نستطيع أن نقصَّ الحكايات .

وإذا لم تسمعوا سوى همسِ الأوراقِ ، لا تقلقوا . فمُعظم الأشجارِ هي في الحقيقةِ انطوائيةٌ .









2



اِسمي ، بالمناسبةِ ، حَمراء .

لعلّنا التقينا مِن قَبل؟ شجرةُ البلُّوطِ القائمةُ قربَ المدرسةِ الابتدائيةِ؟ شجرةٌ ضخمةٌ ، لكن ليسَ بإفراطٍ؟ ظلٌّ لطيفٌ في الصَّيفِ ، ولونٌ بديعٌ في الخريفِ؟

أفتخرُ بقولي إنني شجرةُ بلُّوطٍ شماليةٌ ، أُعرَفُ أيضًا بالاسم العِلمي «كويركوس روبرا» . أشجارُ البلُّوطِ الأحمر هي واحدةٌ من أكثرِ الأشجارِ شيوعًا في أمريكا الشّمالية . في حيّي وَحده ، مئاتُ المئاتِ منّا ، وكلّنا ننسجُ جذورَنا في التُّربةِ مثل حائِكين في مهمّةٍ .

لدي لِحاءٌ مُخدَّد ، رمادي مُحمَّر ، وأوراقٌ سميكةٌ ذاتُ نتوءٍ مُدبّبٍ ، وجذورٌ جامحةٌ ومُستطلعةٌ ؛ وإذا حقّ لي أن أقولَ هذا عن نفسي اِعلموا أنَّ لديَّ أفضلَ لونٍ خريفيٍّ في الشّارع . واسمُ «حمراء» لا يَفيني حقّي . تعالَوا في تشرين الأوّل ، حِينها أبدو كما لو أنّني أشتعلُ . عجيبٌ أنّ فوجَ الإطفاءِ لا يُحاول في الخريفِ أن يُخمِدني .

قد يُفاجئكم إن عَلِمتم أنّ جميعَ أشجارِ البلُّوطِ الأحمرِ تُسمّى حمراء .

على هذا النمطِ نفسِه ، جميعُ أشجارِ القيقب تُسمّى سُكّر . جميعُ أشجارِ العَرعر تُدعى عَرعر . وجميعُ أشجار البوجم اسمُها بوجم .

هكذا هي الحالُ في عالمِ الأشجار . نحن لا نحتاجُ إلى أسماءٍ لتُميّز إحدانا نفسَها عن أخواتِها .

تخيّلوا قاعةَ درسٍ حيث كلّ الأطفال فيها اسمُهم ميلفن . تخيّلوا حال المُعلّمةِ المسكينةِ وهي تحاولُ أن تتفقّدَ الحضورَ في الصَّباح .

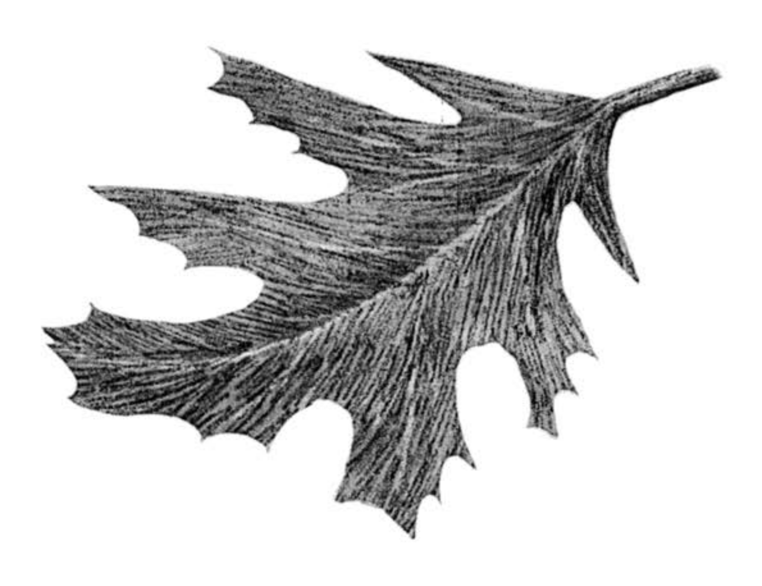
جيِّدٌ أنّ الأشجارَ لا تذهبُ إلى المدرسةِ .

طبعًا ، هناك استثناءاتٌ بالنسبةِ إلى قانونِ الأسماء . في

مكانٍ ما في لوس أنجلوس ، هناك شجرةُ نخيلٍ تُصرّ على أن تُدعى كارماً ، لكنكم تعرفون كيفَ يمكنُ أن يكون سُكّان كاليفورنيا .









3

يَدعوني أصدقائي حَمراء ، وفي وسعِكم أن تفعلوا مثلَهم . لكن ، ولوقتٍ طويل ، لطالما دعاني النَّاسُ في الحَي «شجرة الأَماني .»

هناك سببٌ لهذا ، وهو يعودُ إلى زمنٍ بعيدٍ عندما لم أكن أكثرَ بكثيرٍ من بذرةٍ صغيرةٍ جدًا لديها طموحاتٌ بالنُّمو والارتقاء إلى الأعلى .

والقصَّةُ طويلةٌ .

سنويًا ، في اليوم الأوَّل من شهر أيار ، يأتي النَّاسُ من شتَّى أنحاءِ البلدةِ لِيزيِّنوا أغصاني بقُصاصاتِ الورقِ ، والبِطاقات ، وقطعِ

النَّسيجِ ، ونُتَفِ الخُيوط ، وجواربِ الرياضةِ أحيانًا . وجميعُ هذه الأَضاحي تُمَثِّلُ حلمًا ، أو رغبةً ، أو طموحًا .

وسواء لُفّت حولَ فروعي ، أو رُبِطت بعُقدةٍ ، تتضمَّن كلُّها الأملَ بشيءٍ أفضل .

تاريخُ أشجارِ الأماني طويلٌ ومُشَرِّفٌ ، يعودُ في الزَّمنِ إلى قرونٍ سابقةٍ . يوجد الكثيرُ منها في أيرلندا ، وهي هناك عادةً أشجارُ الزّعرورِ البرّي ، أو أشجارُ الدردارِ العَرَضية . بَيد أنّه باستطاعتِكم العثورَ على أشجارِ أمنياتٍ مختلفةٍ في شتّى أنحاءِ الدّنيا .

غالبًا ما يعاملني النّاسُ بلطفٍ عندما يزورونني . أعتقدُ أنّهم يُدركون أنّ ربطَ عُقدةٍ مُحكَمةٍ قد يمنعني من النُّمو بالطريقةِ التي أحتاجُها . يتعاملون برقّةٍ مع أوراقي الجديدة ، يتصرّفون بحرصٍ مع جذوري .

بعدَ أن يكتبَ النّاسُ ما يتمنّونه على خرقةٍ أو قُصاصةِ ورقٍ ، يعلّقونها بأحدِ أغصاني . وعادةً يُردّدون أمانيهم بهمسٍ مسموعٍ .

التمنّي في الأوّل من شهر أيار طقسٌ تقليديٌّ ، مع ذلك يتوقّفُ النّاسُ أمامي على مَدار السّنةِ .

أوه يا إلهي ، أوه ، يا لتلكَ الأشياءِ التي سمعتُها :

أتمنّى لوحَ تزلّج طائرٍ .

أتمنّى عالمًا خاليًا من الحروبِ .

أتمنّى أسبوعًا بلا غيوم .

أتمنّى أكبرَ قطعةِ حلوىً في الدّنيا .

أتمنّى الحصولَ على علامةِ ممتازٍ في اختبارِ الجغرافيا .

أتمنّى ألا تكون الآنسة جينتوريني حادّة الطِّباعِ في الصَّباحِ .

أتمنّى أن يتكلّم جربوعي .

أتمنّى أن تتحسّنَ صحةُ أبي .

أتمنّى ألّا أجوعَ أحيانًا .

أتمنّى ألّا أكونَ وحيدًا .

أتمنّى تخمينَ ما أتمنّى .

أمنياتٌ كثيرة جدًا . عظيمةٌ وحمقاءُ ، أنانيةٌ وحُلوةٌ .

مع ذلك يُشرِّفني أن تُودَع تلك الأماني في أطرافي العَريقةِ المُتعَبة .

هذا على الرّغم من أنّني مع نهايةِ يوم الأوّل من أيار ذاك ، أبدو كما لو أنّ أحدَهم أفرغَ سلّةً هائِلةً من النِفاياتِ فوقي .





4



كما لاحظتُم حتمًا ، أنا مُولعةٌ بالكلام أكثرَ من مُعظم الأشجارِ . هذا جديدٌ عليَ . وما زلتُ أتعلّم طريقةَ القيامِ به .

مع ذلك ، لَطالما عرفتُ كيف أكتمُ الأسرارَ . ففي حال كنتم شجرةَ أمنيات ، عليكم أن تكونوا كَتومين . يخبرُ النّاسُ الأشجارَ أشياءً مختلفةً . هُم يُدركون أنّنا سنسمعُ .

ليسَت الحالُ كما لو أنّنا نملكُ خيارًا .

علاوةً على ذلك ، كلّما أكثرتُم من الاستماعِ ، تعلّمتُم المزيدَ .

تقولُ بونغو إنّني فضوليةٌ ، وأظنّها مُحِقّة . هي صديقتي المُفضّلة ، أنثى غرابٍ عرفتُها منذ أن كانت لا شيءَ سوى منقارٍ يلتقطُ الطعامَ في بيضةٍ مُنقَّطة .

نختلفُ أحيانًا ، لكن هكذا هي الحالُ بين الأصدقاءِ ، بِغَضِّ النّظرِ عن أجناسِهم . وقد رأيتُ في حياتي المديدةِ صداقاتٍ عديدةً مُدهشةً : مُهْر وضِفدعٌ ، صقرٌ أحمر الذّيلِ وفأرٌ أبيضُ القوائِم ، أجمةُ ليلكٍ وفراشةٌ ملكيةٌ . وكلُّهم طرأت بينهم خلافاتٌ من وقتٍ لآخر .

أعتقدُ أنّ بونغو مُتشائمةٌ جدًّا بالنسبةِ إلى طائرٍ صغير .

وبونغو تعتقدُ أنّني مُتفائلةٌ جدًّا بالنسبةِ إلى شجرةٍ مُعمِّرة .

هذا صحيحٌ . أنا أميلُ إلى التفاؤلِ . أُفضِّل إلقاءَ نظرةٍ شاملةٍ على الحياة . ففي خلالِ عُمري المديدِ شهدتُ ما هو جيّدٌ وما هو سيئٌ . لكنّني رأيتُ الجيّدَ أكثرَ بكثيرٍ ممّا رأيتُ السّيئ .

لِذا أنا وبونغو مُتّفِقتان على ألاّ نتفقَ . وهذا لا بأسَ به . فنحن في نهاية المطافِ مُختلفتان . بونغو على سبيلِ المثالِ تعتقد أنَّ أسلوبَ تَسميتنا لأنفسِنا نحن الأشجارُ مضحكٌ . إذ ، كما هي عادةُ الغربان ، اختارَت بونغو اسمَها بعد أوّلِ مُحاولة تحليقٍ لها . وقد لا يكون في جميع الأحوال اسمَها الوحيد . فالغربانُ

تبدّلُ أسماءَها بسببِ نزوةٍ ما . كان لدى غيزمو ، ابنُ عمٍّ بونغو ، سبعةُ عشرَ اسمًا .

يتّخذُ الغربانُ أحيانًا أسماءَ النّاسِ ، وقد عرفتُ غرابًا اسمها «جو» أكثرَ ممّا رأيتُ أيّامًا مُشمسةً . في بعضِ الأحيانِ تتسمّى بأسماءِ أشياء تروقُ لها : قمّة الفرقعةِ ، عنّاب ، فأرٌ ميت . ويُمكن أن تُسمي أنفسها تبعًا للحركاتِ البهلوانية : لولبُ الفناءِ أو برميلٌ مُتدحرج . أو ربّما وفقَ الألوان : باذنجاني أو سوادُ الخنفساء .

وتميلُ الغربان إلى الأصواتِ التي تحبُّ إصدارَها . (الغربان بارعةٌ في تقليدِ الأصواتِ والحركاتِ .) قابلتُ غرابًا تُطلِق على نفسِها اسمَ جرسِ الريح ، وجرّارٍ بثماني عشرةَ عجلة ، وسائقِ سيارةِ أجرةٍ متبرّم ، من دون الحاجةِ إلى ذكرِ أسماءٍ أخرى قد لا تكون مُهذّبةً .

هناك في آخر الشّارع فرقةُ مُوسيقى روك طموحةٌ ، تتألّف من أربعةِ تلاميذٍ في المرحلةِ المُتوسطةِ . وهم يتدرّبون في مرآبٍ . تتضمّن آلاتُهم أكورديونًا وغيتارًا منخفضَ النّغمة ، وبوقًا وطبولَ بونغو .

إلى الآن لم تؤدّ الفرقةُ أي عرضٍ خارجَ المِرآب ، لكن بونغو تحبُّ الجلوسَ على السّقفِ والتمايلَ على إيقاعِ المُوسيقى .





5

نحنُ لا نختلفُ عن الغربانِ في الأسماءِ فقط .

فبعضُ الأشجارِ ذكورٌ . وبعضُ الأشجارِ إناثٌ . وبعضُها ، مثلي ، تجتمعُ فيه الصِّفتان .

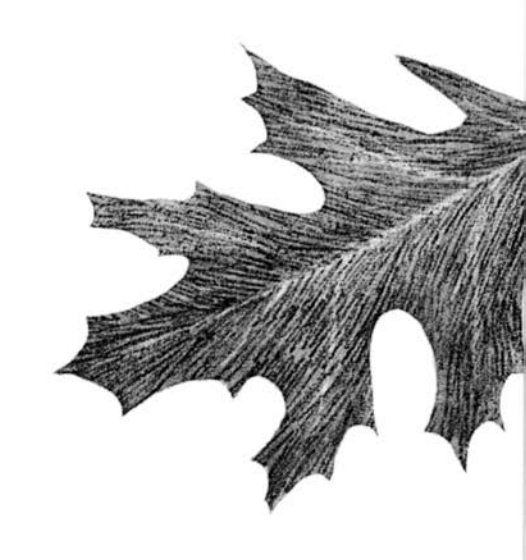
هذا مربكٌ ، كما هي الحال في أغلبِ الأحيانِ مع الطبيعة .

ادعوني هيَ . أو ادعوني هوَ . كلاهما ينفعُ . على مرِّ السّنين ، تعلّمتُ أن المُتخصِّصين في عِلم النبات - تلك الأرواحُ الميمونةُ التي تدرسُ حياةَ النباتاتِ طوالَ الوقت - يُطلقون على بعضِ الأشجار ، مثلَ الصّفصاف والإيلكسس صفةَ :

«مُنفصلةُ الجنسِ» ، ما يعني أنّها تتضمّنُ أشجارًا من الذكورِ وأشجارًا من الإناثِ .

أغلبُ الأشجارِ الأُخرى التي تشبهني ، تُسمّى : «ثُنائيةُ المسكنِ» . هذه ليسَت إلا عبارةً مُنمّقةً لقولِ إن المرءَ سيجدُ في النبتةِ الواحدة أزهارًا من فئةِ الذكورِ وأخرى من فئةِ الإناث .

هذا أيضًا دليلٌ على أنّ حياةَ الأشجارِ مثيرةٌ للاهتمام أكثرَ بكثيرٍ ممّا يُضفيه عليها البشرُ من سِمات .







6

هناك شيءٌ واحدٌ مُشترك بين الأشجار والغربان - في الحقيقة ، شيءٌ واحدٌ يشتركُ به عالَم الطبيعةِ بأسرهِ - وهو القانونُ الذي ينصُّ على أنّه لا يُفترض بنا أن نتكلّمَ مع البشرِ .

هذا من أجلِ حِمايتنا . أو على الأقلّ تلك هي الفكرةُ .

تساءلتُ غالبًا ما إذا كان الصَّمتُ اللانِهائي فكرةً جيّدةً . وقد مرّت أوقاتٌ عديدةٌ أردتُ فيها أن أنطقَ ، أن أتدخّلَ ، أن أساعدَ النّاسَ . إلا أنني ما تفوّهتُ بكلمةٍ واحدة مطلقًا . على هذا النحو جرى العالمُ دائمًا .

هل سبقَ أن كانت هناك زلّات؟ طبعًا ، فالأخطاء قد تحصلُ .

في السنةِ الماضيةِ سمعتُ عن ضفدعةٍ اسمها ذُبابة ، كانت تأخذُ قيلولةً في صندوق بريدٍ . (الضفادعُ تُطلق على أنفسِها أسماءَ الحشراتِ التي تتلذّذُ بالتهامِها .) وعندما فتحَ ساعي البريد الصّندوقَ ، قفزت ذبابة خارجه مع نقيقٍ مسعورٍ ، فغاب ساعي البريدِ عن الوعي .

استعادَ وعيَه على صوتِ ذُبابة وقد جثمَت على جبينه وانبرَت تعتذرُ منه بإفراطٍ .

واضحٌ أنّ هذا خرقٌ لقانونِ الامتناعِ عن مُخاطبةِ النّاس .

لكنَّه ، كما يبدو ، يحدثُ دائمًا . وتلك الحادِثة سرعانَ ما طواها النِّسيانُ . وعمومًا ، كان ساعي البريد واثقًا تمامًا من أنّ الضفادعَ لا تستطيعُ أن تتكلَّم . «يتهيأ لي أنّني أسمعُ أصواتًا ،» لا شكَّ في أنّه قال لنفسِه .

المثيرُ للاهتمامِ ، أنه تقاعدَ بعد فترة وجيزةٍ من حادِثة الضفدعةِ .

في جميع الأحوال ، عندما تُمعنون التّفكيرَ في أعدادِ الأشجار والضّفادعِ وثعالبِ الماء وطيورِ النمنمة واليعاسيبِ والقنافذِ وأي كائنٍ آخر في عالمِ الطبيعة ، ستظنون أنّ البشرَ قد اطّلعوا الآن على سرِّنا الصّغيرِ .

ماذا يمكنُ أن أقولَ؟ الطبيعةُ مراوغةٌ. والبشرُ... حسنًا، معذرةً، لكن مُعظمَكم ليسوا على تلك الدّرجةِ من دقّةِ الملاحظة.

لعلّكم تتساءلون، إن كنتم من النوعِ الفُضولي أو الشّكاك، كيف بالضبط تتواصلُ الأشجارُ مع غيرها؟ وقد تجدون أنفسَكم تتفحّصون شجرةَ صَنوبر في الجوارِ ربّما، أو شجرةَ حورٍ أو شجرة صمغٍ في محاولةٍ لفكّ الطّلاسِم.

يستعين النّاسُ في كلامِهم بالرّئتين والحنجرةِ والحلقِ واللسانِ والشفتين، وذلك بفضل سيمفونيةٍ مُعقّدةٍ من الصّوتِ والنَّفَسِ والحركةِ.

لكن هناك وفرةٌ من الأساليبِ الأخرى لنقلِ المعلومات. حاجبٌ يُعقَد، ضحكةٌ مكتومةٌ، دمعةٌ ممسوحةٌ؛ هذه أيضًا طُرقٌ يُعبّر بها النّاسُ عن أنفسِهم.

بالنسبةِ إلى الأشجار، التواصلُ مع الآخرين مُعقّدٌ وإعجازي كما هو بالنسبةِ إلى البشر. فنحن نبني جسورًا غيرَ مرئيّةٍ لنتواصلَ مع العالم، عبرَ رقصةٍ غامضةٍ من أشعةِ الشّمسِ والسُّكّرِ، ومن الماءِ والريح والتربةِ.

الضفادعُ لها طرقُها الخاصّة في التّواصل. وكذلك الأمرُ بالنسبةِ إلى الكلاب، وسمندلات الماءِ والعناكبِ والفِيلة والنسورِ.

كيف نفعلُ ذلك بالضبط؟ هذا ما نعرفُه ، وهذا ما عليكم اكتشافُه .

فالطبيعةُ ، إلى جانبِ صفاتِها الأخرى ، تعشقُ أيضًا السرَّ الجيِّدَ .





7

أنا ، على فِكرةٍ ، لستُ مجرَّد شجرةٍ ، بل أيضًا مأوى . أنا مسكنٌ مُشتركٌ .

تُعشِّش أقوامٌ على أغصاني ، تتخذُ جحورًا بين جذوري ، وتضعُ البيض على أوراقي .

ثم هناك تجاويفي . تجاويفُ الأشجار - فتحاتٌ في الجذع أو الفروع - ليست غير مألوفةٍ ، خصوصًا في الأشجار التي مثلي ، أشجارٌ مضَت عليها فترة من الزّمنِ هنا .

التجاويفُ قد تكون صغيرةً بما يكفي لتحتضنَ طيورَ القرقفِ

المُنمنمة بلونيها المِلحي والفُلفلي ، أو عائلةً من فِئران البراري . أو قد تكون تجاويفَ واسعةً ، واسعةً بما يكفي لدبٍّ مُتفهّم .

أنا طبعًا من أشجار المُدن . ولا دببةَ منتشرةٌ هنا ، ما لم تكُن من الدُّمى . إلا أنني استضفتُ العديدَ من حيوانات الرَّاكون والثّعالب والظَّرِبَان والأبوسوم والفِئران . في إحدى السنوات كنتُ بيتًا لعائلةٍ رائعةٍ وفي مُنتهى الأدب من حيواناتِ الشَّيهم .

بل حتّى رعيتُ إنسانًا .

هذه حكايةٌ تطولُ . (لدي حكايات جمّةٌ مُخزّنة كما يخزّن السِّنجابُ ثمارَ البلُّوطِ .)

تنشأ التجاويفُ نتيجة أسبابٍ متعدّدة . نقّار الخشب . أغصانٌ متكسّرة . البرقُ . المرضُ . حشراتٌ ضارّة مُتغلغلةٌ .

في حالتي ، لدي ثلاثةُ تجاويف . تجويفان متوسِطا الحجم سبّبهما نقّارُ الخشب . والتّجويفُ الأكبر حدث عندما كنتُ فتيّةً . فقدتُ فرعًا ضخمًا أوهنَه الثلجُ النّدي خلالَ عاصفةٍ من الشّمال الشّرقي . كان جرحًا كبيرًا ، بطيءَ الشّفاءِ ، وفي ربيعِ تلك السنةِ لم أورِق جيّدًا ، وكان لَوني الخريفيُّ شاحبًا (ومحرجًا بصراحةٍ) .

في آخرِ الأمرِ شُفي التجويفُ ، ووُسّع بمساعدةِ الحشرات ،

والآن ، على مسافةِ أربعةِ أقدامٍ من الأرض ، لدي تجويفٌ بَيضويّ عميق .

توفِّر التجاويفُ الحمايةَ من العواملِ الطبيعية ؛ فهي تمثّل بقعةً حصينةً للنوم وإخفاءِ الحاجيات . هي مكان آمِن .

التجاويف برهانٌ على أن شيئًا سيئًا يمكن أن يصبحَ شيئًا جيِّدًا مع مرور الوقتِ المناسِب والاهتمامِ والأمل .

كَوْني مأوى للآخرين ليس سهلاً دائمًا . أحيانًا أشعر كما لو أنّني مُجمَّعٌ سكني فيه كمٌّ هائلٌ من السُّكّان . سكّانٌ ليسوا على وفاقٍ دائمًا .

مع ذلك ، نسعى بدأبٍ إلى إنجاحِ الوضع . دَيْدَنُ الطّبيعة الأخذُ والعطاءُ . فنقّارُ الخشبِ يُعمِلُ نقرًا في جذعي ، لكنه يلتهم أيضًا الحشراتِ المزعجةِ . العشب يبرّدُ الأرض ، لكنه أيضًا ينافِسني على الماء .

تجلبُ لي فصولُ الربيع دائمًا سُكّانًا جددًا ، أو أصدقاءً قُدامى ، ومزيدًا من محاولاتِ التّسويةِ . هذا الربيع بصفةٍ خاصَّةٍ شهدَ كثافةً في المواليد . حاليًا أنا بيتٌ لكتاكيتِ بومةٍ ، وصغارِ أُبوسوم وأطفالِ حيواناتِ راكون مُنمنمةٍ . ويزورني بانتظام عددٌ من الظَّرِبَان التي تعيشُ تحت رواقٍ أمامي في أحد بيوتِ الجِوار .

هذا حدثٌ غير مسبوقٍ . فأنا ما آويتُ قطّ هذا العددَ الكبير من الصّغار . إنَّه شيء لا يحصلُ عادةً ، فمخلوقات الطبيعةِ تحبُّ مساحتها الخاصّة ومِنطقتها الخاصة . وبين حين وآخر ينشأ جدالٌ ما . بل ربّما يُسرقُ عشٌّ ، أو ينشِبُ عراكٌ في مُنتصف الليل .

بالتأكيد لم يخلُ الأمر من بعضِ الخصومات المصيرية . لكنّني بيّنتُ لسُكّاني بحزمٍ أنّ التهامَ الجارِ لجارِه لن يكون مسموحًا ما دمتُ المسؤولةَ .

بالنسبة لي ، لا أشعرُ أبدًا بالضِّيقِ مع وجودِ هذا الرّهط الكبيرِ عندي .

إنّها حياةٌ مدهشةٌ أن تقضوا أيامَكم في منحِ الآخرين الشّعورَ بالأمانِ .



8

عندي عضوٌ آخَر في جاليتي، على الرّغم من أنّني أفضّل كلمةَ زائرةٍ لوصفِ سمر.

في كانون الثاني انتقلَت مع ذَويها إلى أحد البيوت التي أُظلّلها. بيتٌ أزرقُ صغيرٌ بشرفةٍ مُنحدرةٍ وحديقةٍ مُشذّبة. لعلّها في العاشرة من العُمر أو ما يُقارب ذلك، وذات عينَين حَذرتين وابتسامةٍ خجولةٍ.

لسمر سماتُ شخصٍ سبقَ أن شاهدَ الكثير. شخصٌ يريد من العالَم أن يَتروّى.

مباشرةً بعد الانتقالِ إلى هنا، بدأت سمر تتسلّلُ إلى الفناء

حالما ينام والديها . حتى في أشدّ الليالي بردًا ، خاضَت طريقها بجزمتِها الحمراء وسُترتها الخضراءِ ، ونفَسُها كأنّه وِشاحٌ يكسوه الصّقيعُ . وجلسَت تتأمّل القمرَ وتتأمّلني ، وأحيانًا رَنَت إلى البيتِ الأخضرِ الصّغير المُجاورِ لبيتِها ، حيث يسكنُ صبيٌّ يبدو أنّه في مثلِ سنِّها تقريبًا .

وعندما أصبح الجوُّ أكثر دفئًا ، درجَت على أن تندفعَ خارجةً بمنامتِها وعباءتِها ، وتجلسُ عند قاعدةِ جذعي على بطّانيةٍ قديمة يُزخرِفها ضوءُ القمر . صمتُها مطلقٌ ، ورِقّتها في مُنتهى الوضوح ، إلى درجة أن سُكّاني كانوا يزحفون خارجَ أعشاشِهم المُكوّنة من وبرِ الشّوكِ وزغَب الهندباءِ للانضمامِ إليها . بدا أنّهم يتقبّلونها كواحدةٍ منهم .

بونغو ، على وجه الخصوصِ ، أحبّت سمر . فترَونها ترفرفُ قرب كتِفها وتجثُمُ هناك . أحيانًا قد تقول «مرحبًا» بنبرةٍ جيّدةِ التّقليد لصوتِ سمر .

في أغلبِ الأحيان أعطَت بونغو سمرَ هدايا صغيرة ، تكون قد عثرَت عليها خلال رحلات طيرانها اليومية . نموذجٌ من نماذجِ المونوبولي (سيارة مثلاً) . شريطُ شعرٍ ذهبيٌّ . غطاءُ قارورةِ مشروبٍ .

تحتفظُ بونغو برصيدٍ من النّثرياتِ في واحد من تجاويفي الصُغرى (تتحمّلُ حيواناتُ الأبوسوم وجودَ تلك النثريات بصدورٍ رحبةٍ) .

«ما يُدريكم متى تستدعي منّي الظروفُ رشوةَ أحدِهم!» يحلو لبونغو أن تقولَ .

لكن هداياها لسمر لم تكُن رشوات . بل طريقةُ بونغو في قولِ : «يُسعدني أنّنا صَديقتان .»

لو أنَّ هذه حكايةٌ خُرافيةٌ لقلتُ لكم أنّه ثمّة شيء سِحري في سمر ، وأنّها ربّما قد ألقَت تعويذةً ما على الحيوانات .

فالحيواناتُ بطبيعةِ الحالِ لا تغادرُ أعشاشَها وملاجئها عن طيبِ خاطر . هي تخافُ من النّاس لسببٍ وجيهٍ .

إلّا أن هذه ليست حكايةً خرافيّةً ، ولا تعاويذَ هناك .

تتنافسُ كائناتُ الطّبيعةِ على المواردِ ، كالبشر تمامًا . يلتهِمُ أحدُها الآخر . وتتعاركُ من أجل بسطِ الهيمنة .

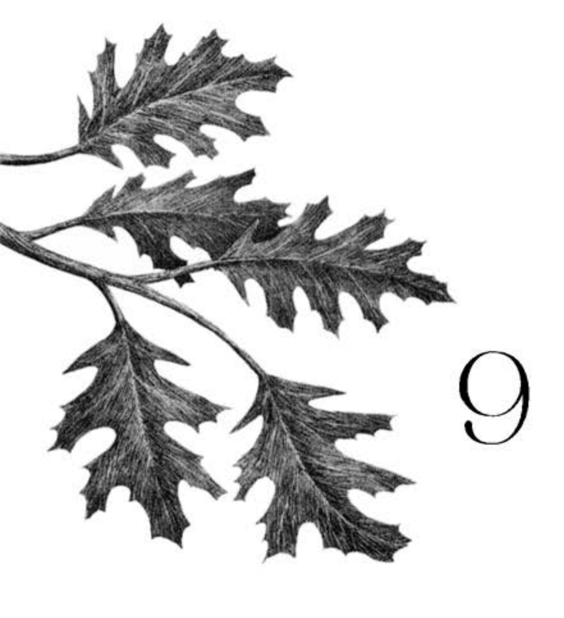
الطبيعةُ ليست جميلةً دائمًا أو عادلةً أو لطيفةً .

إنّما قد تطرأُ المفاجآت أحيانًا . وسمر ، ذكّرتني في كلّ ليلةٍ ربيعية بأنَّ هناك روعةً في السَّكينة ، وفضيلةً في الرِّضا .

وأننا لسنا مُطلقًا أكبر سنًّا من أن تعترينا الدَّهشةُ .







9

سُررتُ لرؤيةِ عائلةِ سمر تنضمُّ إلى حيِّنا . مضَى وقتٌ طويلٌ منذُ أن جاءنا قادمون جُدد . ولم يغِب عني أنّهم مع مرورِ الأيامِ سيثبّتون جذورَهم ، تمامًا مثل العديد من العوائل الأخرى القادمة من أماكنَ مختلفةٍ ومتنوعةٍ .

أعرفُ شيئًا أو شيئين عن الجذورِ .

في إحدى الليالي قبلَ فترةٍ قصيرةٍ ، جاءت سمر للزِّيارة . كان ذلك في الثانيةِ بعد مُنتصف الليل . وقتٌ متأخّر حتى بالنسبةِ إليها .

كانت تبكي ، ووجنتاها نديّتَين . اِتكأت عليّ ودموعها تنسابُ كالمطرِ الحارِّ .

لاحظتُ أنّها تمسكُ قُصاصةَ قماشٍ ، ورديةَ اللونِ وذات نُقاطٍ صغيرة ، وعليها كُتِب كلامٌ ما .

أمنيةٌ . الأمنيةُ الأولى التي أراها منذ شهورٍ .

لم يُفاجئني أنها مُطّلعةٌ على تقليدِ شجرة الأماني . فأنا أقربُ إلى نوعٍ من المشاهير المحلّيين .

مدّت سمر يدَها ، وبلطفٍ جذبَت أدنى غصنٍ من أغصاني ، وربطَت قطعةَ القماش بعُقدةٍ رخوةٍ .

«أتمنّى . . .» همسَت ، «الحصولَ على صديقٍ .» ألقَت نظرةً على البيتِ الأخضرِ . ومن وراء ستارةٍ في الطابقِ العُلوي تحرّك طيفٌ .

وبهذا ، اختفَت سمر عائدةً إلى البيتِ الأزرقِ الصّغير .







10

عِندما تقفون بلا حراكٍ لما يزيدُ عن قَرنَين بينما يَمضي الزّمنُ في دورتِه ، تحدثُ الأشياءُ .

في الغالبِ ، وإلى حدٍّ بعيدٍ ، وخلال مراحلَ متنوعةٍ ، كانت الأشياءُ الجيّدةُ من نصيبي في الحياة . أنعشَت أوراقي المُرفرفةِ مع النسيم المُتنزهين وطالبي القُرب . تحتَ أغصاني تبادل المُحبّون العهودَ . عُولِجت القلوب . والمُقيلون أخذوا قيلولةً ، والحالمون حلموا . راقبتُ محاولاتِ تسلّقي ، واستمعتُ إلى الحكاياتِ تُنسَج .

والضّحك! ضحكٌ ، دائمًا وأبدًا .

لكن أحيانًا تنشأ أشياءٌ ليست جيّدةً جدًا . وتعلّمتُ ، عندما تحدثُ ، أن لا شيءَ يُمكن فِعله سوى أن أقِف شامخةً وراسخةَ الجذورِ .

أنا ، على سبيل المِثال ، كثيرًا ما اختُرِقت ، ونُحِتَ جذعي ، واستُخدمتُ للتدرّب على تصويبِ الأهداف .

كنتُ أحيانًا أفتقرُ إلى الرَّيِّ الجيِّدِ ، أو يُفرطُ النّاسُ في تَشذيبي وتَسميدي ويُبالغون في الاعتناءِ بي ، أو يُهملونني ويَهجرونني . ضربَتني الصّواعقُ ، وهاجمتني نُدفُ الثّلجِ والبَرَد .

هدّدتني الفؤوسُ ، والمناشيرُ ، والأمراضُ والحشراتُ .

تحمّلتُ مخالبَ السّناجبِ الحادّة ، ووخزَ نقّارِ الخشب المِلحاحِ . تسلّقتني القِطط ، وتركَت الكلابُ آثارها عندي .

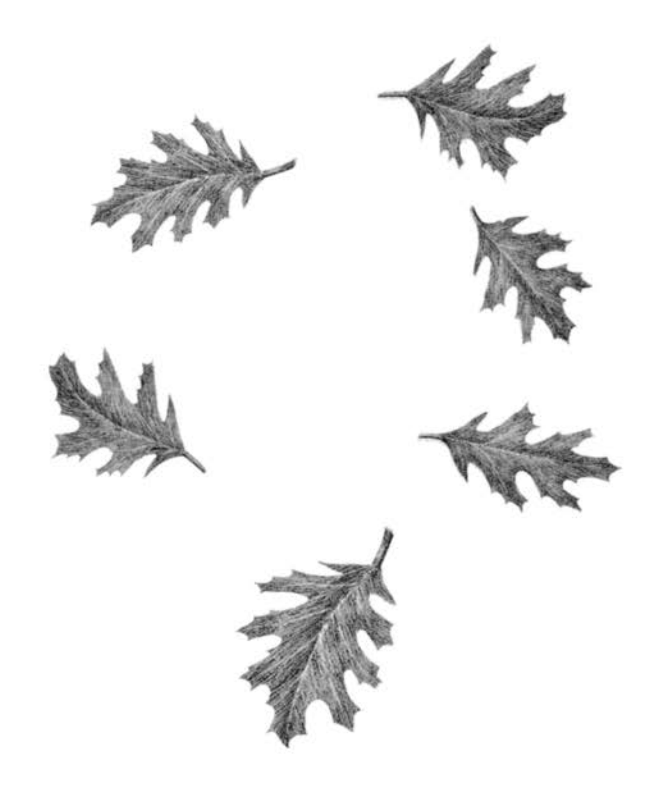
لدي ، كأي كائنٍ آخر ، أوجاعي وآلامي . في السّنةِ الماضية ابتُليت بالقملِ وهذا أوصلني إلى الجنون . قروحٌ في الأغصانِ ، سخامٌ متعفّنٌ ، بلوطٌ ذابل ، وأوراقٌ مُهترئة ومُحترقة : عانيتُ من ذلك كلّه بسببِ القمل .

مع ذلك ، الأشجارُ أسعدُ حظًا من البشر بطريقةٍ ما . فالأشجار التي اكتملَ نُموّها تبقى في الواقعِ حيّةً بنسبةِ واحدٍ بالمئةِ تحت أي ظرفٍ من الظروفِ . مُعظم تكويني يتألّفُ من

خلايا خشبٍ ما عادت حيَّةً . وذاك يجعلني أصلبَ من البشرِ في عدّةِ نواحٍ .

لِذا ، نعم . رأيتُ الكثير . ومن يدري؟ قد أرى ما هو أكثرُ بكثيرٍ . إذ يُمكن أن أعيشَ ليصبحَ عمري ثلاثمئةِ سَنة ، أو ربّما خمسمئةِ سنة . هذا يحدثُ . حياةُ أشجارِ البلُّوطِ الأحمرِ مديدةٌ ، أطولُ من حياة صديقاتِنا الرَّقيقات أشجارِ الصَّفصاف الأسود ، وأشجار الكاكي والتُّفاح وأشجارِ الأزرار الوردية .

لكن ، بعدَ أيّام قليلةٍ من أمنيةِ سمر الباكية ، حصلَ شيءٌ دفَعني إلى التّساؤلِ ما إذا كنتُ قد شهدتُ أخيرًا أشياءً أكثر مما ينبغي!



11

كان الصباحُ يتفتّحُ ، وأنا أنتظر انتشارَ الدِّفء . وعند آخرِ الشارع رأيتُ فتى ضامرًا لبثَ مُتلكئًا قربَ لافتة توقّفٍ .

وقفَ مُطأطئ الرّأس ، مُنحنيًا مثل عُشبة ضارّة ذرَتها الرياحُ . بيده اليُمنى شيءٌ يلمع . أداةٌ ما أو قلمٌ ربّما .

كان شبهَ مبتسمٍ ، كما لو أنّه روى لنفسِه طُرفةً . طرفةٌ ، لعلّه هو وحدَه مَن فهِمها .

طوالَ اليومِ أرى النّاسَ تائهين مع أفكارهم ، يُحدّثون أنفسَهم ، يبتسمون ، يُكَشّرون . وذاك الفتى لم يكن استثناءً خارجًا عن المألوف .

كنتُ في وسطِ حوارٍ مع بونغو، بعد أن أشارت أنني غدوتُ أكبرَ بسنةٍ. على وجه الدِّقةِ بلغتُ مئتين وستَّ عشرة دورةَ حياة.

«يومُ تَفَتُّحِ برعمٍ آخر،» قلتُ لها. «وما زلتُ أشعر أنني شتلةٌ صغيرةٌ.»

«لا يبدو عليكِ أنَّكِ أكبر من مئةٍ وخمسين دورةِ حياة،» علّقت بونغو. «أجملُ شجرةٍ في الحي.»

«أنا كذلك حقًا!» – تمهّلتُ هُنيهةً قبل أن أتابعَ من أجل التأثير الهزلي – «أكادُ أبلغُ هذه السِّن.»

بونغو التي كانت جاثمةً على أوطأ أغصاني، تنهّدَت. وتنهُّدُ الغربان لا يُمكن تجاهله، فهو يشبه آهةَ شيخٍ ضئيلِ الحجم وغريبِ الأطوارِ.

«دُعابةُ شجرةٍ،» أردفتُ في حال فاتَت الطُّرفة على بونغو، مع أنها بالطَّبعِ لم تفتها. بونغو لا يفوتها شيءٌ. «لأنني، كما تعلمين، ممشوقةُ القوام.»

«حقًا يا حمراء؟» تمطّت بونغو، متخايلةً بجناحيها اللامعين وسوادِهما الفاحم. «أهذا أفضلُ ما لديكِ لي هذا الصَّباح؟»

«ربما تُقدّرين طُرفتي أكثر لو أنكِ لستِ حساسةً جدًا تجاه قامتكِ،» أغظتُها.

«فصائلُ الغربان لا تهتمّ قيدَ أُنملة بالطولِ ،» قالت بونغو . «الذَّكاءُ . سعةُ الحيلة . الخداعُ . المكرُ . هي الصّفاتُ التي تُحتَسَب في المناطقِ التي نجوبها .»

«فصائلُ الغربان» هو وصفٌ مبهرجٌ للطُّيور مثل الغربانِ العاديةِ ، والغربان السّوداء ، والقيقِ والعقعقِ . تقول بونغو إنّها أعلى شأنًا من استخدام صفةٍ مُتَداولةٍ كاسم «غراب .»

دغدغَت أغصاني نسمةٌ لَطيفةٌ . الربيعُ ، ذاكَ النّذلُ القديمُ كان يُمَنّينا بوعدٍ بأيام أدفأ .

«في الحقيقةً ،» قلتُ ، «الحجمُ لا يهمّ يا بونغو . نحن ننمو كما ينبغي أن ننمو ، كما سبقَ أن قرّرَت بذورنا منذ عهدٍ بعيدٍ .»

«ما زلنا في وقتٍ مُبكر جدًّا من الصّباح يا حمراء ، لتُتحِفيني بموّال الشجرةِ الحكيمةِ .» اعترضَت بونغو وهي توجِّه لي نخزةً رقيقة . «على الرّغم من أنكِ مُحقّة . إذ لا يهمّ كم يبلغ طولكِ .» ثمّ برفرفةٍ خاطفةٍ ، حلّقت مُبحرةً نحو عمود هاتف أعلى بكثيرٍ من قبّتي المُورقة . «ليس عندما يمكنكِ أن تطيري يا رفيقتي .»

في اللحظةِ نفسِها تقريبًا ، خرجَت سمر والصّبي الذي يعيش في البيتِ الأخضرِ ، كلّ واحدٍ منهما إلى شرفةِ بيته . الاثنان يحملان حقيبةَ ظهر ، الاثنان بدَت عليهما لهفةُ استقبالِ الصّباحِ .

التقَت عيونُهما . هزّ ستيفن رأسَه هزّة طفيفةً ، وسمر ردّت التحيّةَ . ليست بالضّبط «مرحبًا» . مجرّدُ إشعارٍ بالتّلقي .

حثّ ستيفن الخُطى نحو المدرسة الابتدائية في أسفلِ الشارع ، أما سمر فتريّثت . «مرحبًا» هتفَت بصوتٍ خافتٍ .

وفي الوقتِ المناسب ، ردّت بونغو «مرحبًا ،» كما درجَت أن تفعل كلّ صباحٍ ، مُقلّدةً صوتَ سمر .

تستطيع بونغو أن تقلّدَ نغمةَ بوقٍ بطريقةٍ مقبولة . وتُتقِن تقليد عواءِ كلبٍ صغيرٍ ، وتبرعُ في مُحاكاة صفّارةِ الإنذارِ .

نظرَت سمر إلى بونغو ، ابتسمَت ثم يمّمَت المدرسة .

بعدئذٍ ، أطلقَت بونغو نعيقًا أجشّ ونعيبًا مرحًا ، وانطلقَت لتنتظرَ قدومَ الأطفالِ إلى المدرسة . كانت مألوفةً هناك . وجميع التلاميذِ يعرفونها . استمتعَت بإزعاجِ الأطفالِ ، وهم استمتعوا بالسّماحِ لها بإزعاجهم .

أحبَّت بونغو ، بصفةٍ خاصّة ، حلّ أربطةِ الأحذية . وبينما ينهمكُ الأطفال في رِبطها ثانيةً ، تختطفُ بونغو المأكولاتِ من سلالِ الغذاء .

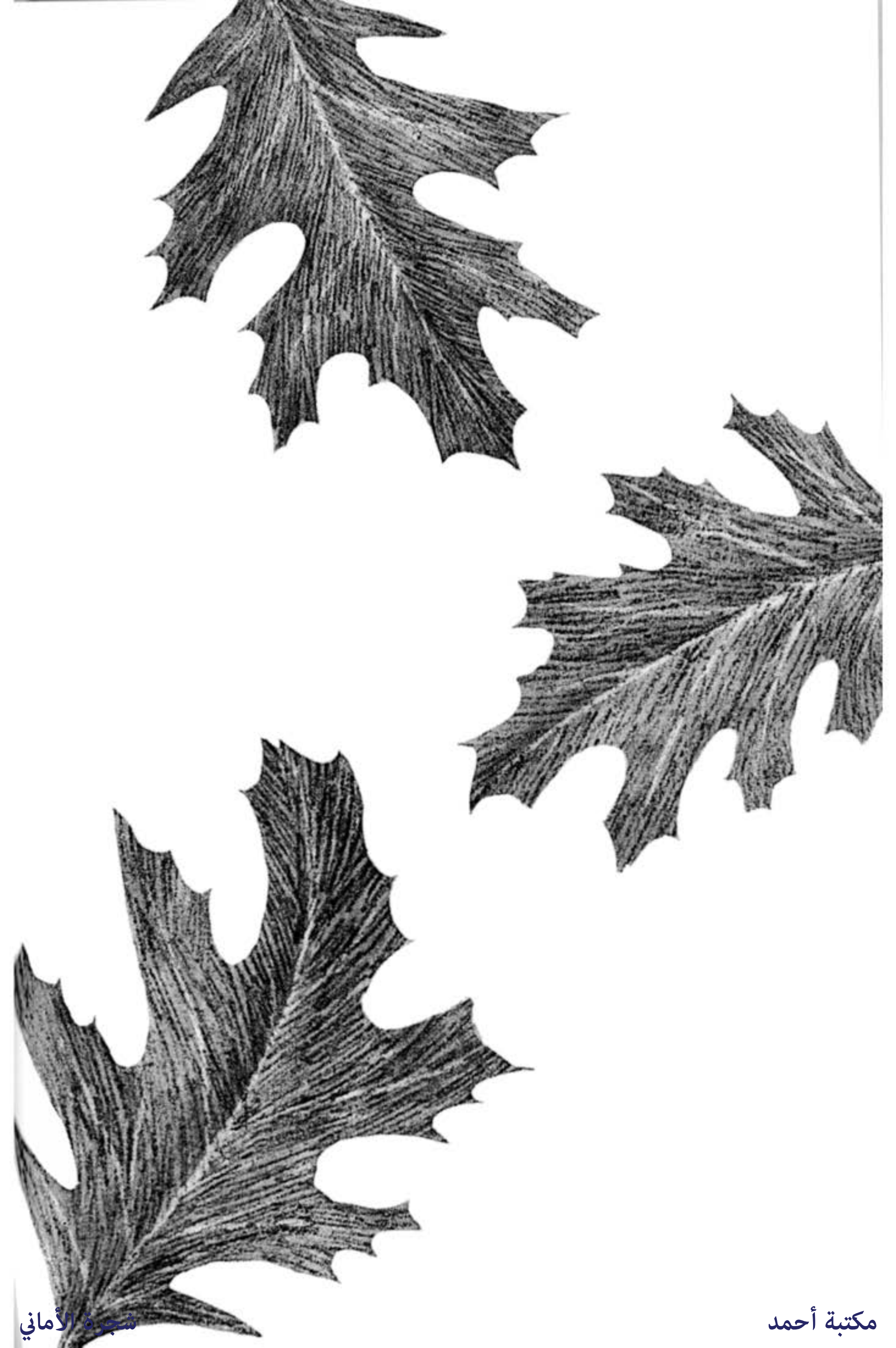
بين الحينِ والآخر ، قد تُقدِم على طلب الأشياءِ بأدبٍ . يُمكن أن تقولَ : «رقاقةُ بطاطِس رجاءً ،» «أبدًا ،» و «أنتَ رائع ،» عندما

يخدمُ هذا أغراضَها .

بينما راقبتُ بونغو تحلّق ، فكّرتُ ، وليس للمرّة الأولى ، بجذوري المُتغلغلة في الأرض . ماذا يشبهُ الطّيران؟ الاختباءُ في الجحور؟ السِّباحةُ؟ الجَريُ؟

سيكون ذلك مُبهجًا بلا شكٍّ . متعةٌ مطلقةٌ . ومع ذلك ، أنا لن أقايضَ جذرًا واحدًا من جذوري مقابلَ إحداها .

أن تُحبّوا ما أنتُم عليه ما هو إلا هبةٌ عظيمةٌ في الحقيقةِ .



12

في هذه الأثناءِ ، تجاوزَني الفتى الهزيلُ ، ثم استدارَ وعاد . استرقَ النَّظر من فوق كتفِه ، ثم تقدّم نحو العشبِ البُني الذي يُغطي جذوري .

تغيّر الهواءُ ، ارتعشَ بطريقتهِ المَعهودة عندما يقتربُ النّاسُ منّي بتركيبتهم الكيمياويةِ ونبضِهم الحارّ وتكوينهم البَشري .

ثم حدثَ ما حدثَ .

نَحَتَ جذعي بالأداةِ التي معه . بسرعةٍ . بإصرارٍ مُتعمّدٍ .

من جديدٍ عادَ وتفحّصَ المحيطَ من حوله . ابتسمَت له عجوزٌ

تعبر الشارعَ وهزّت رأسَها . لعلّها على الأرجح فكّرَت ، «كم هذا لطيفٌ . أراهِن أنَّه ينحتُ شكلَ قلبٍ وفيه حروف الأسماء الأُولى . أوه . رائعٌ أن يكون المرءُ فتيًا وعاشقًا!»

لدى النَّاسِ انطباعٌ بأنّ الأشجارَ لا تمانعُ أن ينحتوا جذوعَها ، خصوصًا إذا تعلّقَ الأمرُ بالقلوبِ .

لِمعلوماتكم : نحنُ نمانعُ .

لم يسبق لي قطُّ أن رأيتُ هذا الفتى من قبل . كان كبيرًا . ربّما في المدرسةِ الثَّانوية . صعبٌ أن نميّزَ ذلك في النَّاس . مع أي شجرةٍ ، يمكنني أن أُخمّنَ عمرَها بالأشهرِ ، وأحيانًا باليوم .

لم أستطع أن أعرفَ ماذا انهمكَ ينحتُ طبعًا . لكن خمّنتُ من حركتهِ العنيدةِ أنَّ ما يفعله يقصدُ به الأذى .

لَيسَ إيذائي أنا . بطريقةٍ ما خمّنتُ أنَّ ما نحتَه لا يقصدُ منه الإساءةَ لي . أنا ما كنتُ إلا رُقعتهُ .

بغضِّ النَّظرِ عمّا خطرَ لي ، اِختراقي هكذا ليس بالضّبط ممتعًا . اللحاءُ جلدي ، وسيلةُ حِمايتي من العالَم . وأيُّ جرحٍ يصيبني يُصعّبُ عليَّ التّصدي للأوبئةِ والحشراتِ .

أردتُ أن أصرخَ «توقّف!» أن أقولَ شيئًا ، أيَّ شيءٍ .

طبعًا ، لم أفعل . هذه ليسَت طريقتُنا .

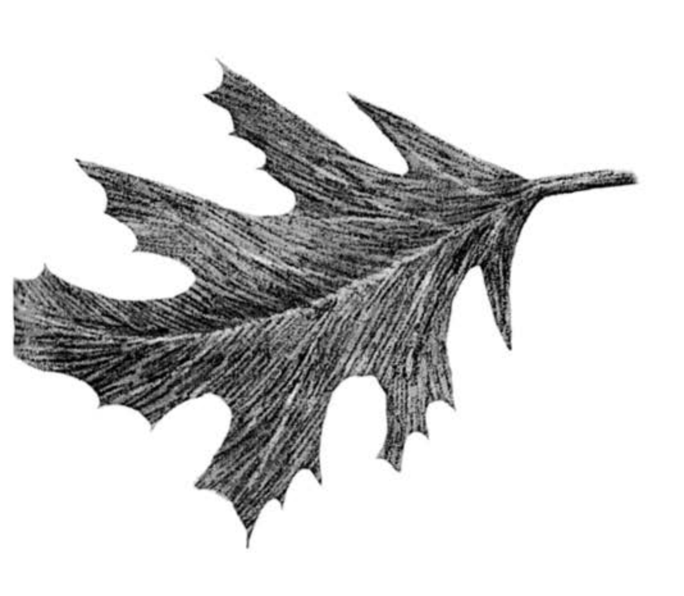
الأشجار خُلِقت لتستمعَ ، لتُلاحظَ ، ولتتحمّلَ .

أنهَى ما يفعله بسرعةٍ . رَجعَ القَهقرى . أبدَى إعجابَه بعملِه ، هزّ رأسَه هزّةَ رضا طفيفةٍ ، وانصرف . وبينما هو يبتعدُ ، رأيتُ الأداةَ التي بيدِه .

مفكٌّ صغيرٌ بمقبضٍ أصفرَ .

نحيفٌ كغصنٍ ، لامعٌ كقُبَّرةِ المروج .





13

بونغو هي أوّل مَن رأى ما أصابَني .

نزلَت إلى قاعدةِ جذعي ، وأمالت رأسَها . أسقطت رقاقةَ البطاطِس من منقارها ، وصاحت ، «أتركُكِ وحدكِ بضع دقائقَ ، وانظري ماذا جرى! ما هذا بحقِّ الجحيم؟»

«يَبْدو أن شخصًا ما ظنّ أنّني يقطينةٌ ،» قلتُ . وعندما لم تبتسم أضفتُ ، «لأنني كما ترَين قد حُزِّزتُ .»

«للمرّةِ المليونِ يا حمراء ، تفسيرُ نكاتكِ لا يجعلُ الأمور أطرفَ .»

طارت بونغو إلى أوطأ فرعٍ متينٍ من فروعي - أحدُ أكبر أطرافي الأساسية - تفحّصَت جرحي . «أيُؤلمكِ؟»

«لَيسَ كما قد يؤلمكِ جرحٌ . الأشجارُ مختلفةٌ في هذه الناحية .»

«يجبُ أن أفعلَ شيئًا ،» قالت بونغو .

«لا شيءَ يُمكنُ فِعله يا بونغو .»

«لديكِ جرحٌ بيّنٌ . وأريدُ أن أساعدَ . أنتِ الشجرةُ المُعمِّرة الحكيمةُ . أخبريني ما العَمل .»

«الزّمنُ يا بونغو ، كفيلٌ بشفاءِ الجراح .»

تنزعجُ بونغو عندما أتفلسفُ . دوَّرت عينيها . (على الأقلّ أظنّ أنها فعلَت . الجزمُ مع الغربان صعبٌ . فعيونها مثلَ ثِمارِ العلّيقِ في الصّباح ، داكنةٌ ونديةٌ .)

«أنا آملُ فقط ألّا يكون لِحائي قد أُفْسِد ،» قلتُ . «فذاكَ جانبي المُفضّل .»

«لا ، لم يفسُد ، زُخرِف فقط . إنّه يشبه الوشُومَ التي لدى النّاسِ .» دفعَتني بونغو بمنقارِها . «دُلّيني على مَن ارتكبَ هذا . وسأنالُ منه . سأزعقُ عند نافذتهِ في مُنتصفِ الليلِ . سأُغِيرُ عليه وأهاجمُه وأقتلعُ خُصلاً من شعره .» خفقَت بجناحيها . «لا! بل

أفضل من هذا بَعد! سأجعلُ من رأسه مستودعًا لقاذوراتي يوميًا لمدّةِ سنةٍ!»

لم أسألها أيّ نوعٍ من القاذورات. كنتُ متأكّدةً تمامًا من أنّني أعرفُ.

«يا عزيزتي بونغو،» قلتُ، «لن يكونَ هذا ضروريًا.»

نقلَت بونغو وقفتها من قدمٍ إلى قدمٍ، حركةً تقومُ بها كلّما همّت باستنباطِ حلٍّ لمشكلة. «كما تعلمين،» قالت، «أزِفَ تقريبًا يومُ الأماني. لعلّ هذه أمنيةٌ من نوعٍ ما. إنّما أمنيةٌ عُبِّرَ عنها بطريقةٍ سيئة.»

«يومُ أمنياتٍ آخر!» كرّرتُ. إذ بدا لي كما لو أنّنا فرغنا توًّا منه. أجاءَت سنةٌ ومضَت حقًّا؟ للأيام طريقتُها في الانزلاقِ كقطراتِ المطرِ في النّهر.

«دورةٌ أخرى جديدةٌ،» قالت بونغو، «مِن البشرِ الطّماعين الذين يُقلقونكِ برغباتهم.» «بل دورةٌ أخرى جديدةٌ من النّاس المُتفائلين الذين يتمنّون أشياءً أفضل،» صحّحتُ لها.

لطالما كان يوم الأماني شاقًّا نوعًا ما عليّ، وعلى سُكّاني. وفي العادةِ تبقى الحيواناتُ والطّيور بِمنأى عني في ذلك اليومِ، لتتجنّبَ الأيدي الفضوليّة والتقاطَ الصُّورِ اللانِهائية.

إلّا أنّه كَانَ يومًا واحدًا فقط . استوعبتُ تاريخَه ودوري فيه .
كنت أدركُ أنّ النّاسَ مُفعمون بالرَّجاءِ .

مرَّت أُمٌّ تجرُ طفلتَها على طولِ الرّصيف وجمدَت في أرضِها حالما وقعَت عيناها على جذعي .

«ماما ، ما المكتوب هنا؟» سألَتْها ابنتها التي كانت تمسكُ دميةَ كلبٍ محشوةً من ذيلها المُتّسخ .

الأمُّ لَمْ تردّ .

«ماما؟»

اجتازتا العشبَ ، ودنَت الأمُّ مني . «مكتوبٌ هنا : اِرحلوا ،» قالت أخيرًا .

«ما مَعنى هذا؟»

برفقٍ تتبّعَت سبابةُ الأمِّ جرحي . «لا أدري ،» أجابت . «ربّما شيءٌ لا معنى له .»

ثم التفتَت تتفحّصُ البيتَين القريبين منّي .

بعدئذٍ أمسكَت يدَ طفلتها بإحكامٍ وهي تهزّ رأسَها وتقول : «لِنأمَل أن لا معنَى لهذهِ الكلمةِ .»



14

هَذان البَيتان ، بَيتاي .

أحدُهما مَطلي بالأزرقِ . وأحدُهما مَطلي بالأخضرِ .

أحدُهما بابُه أسودُ . والآخرُ بابُه بُنّي .

أحدُهما صندوقُ بريدهِ أصفرُ . والثّاني بصندوقِ بريدٍ أحمرَ .

لِما يَربو عن قرنٍ حدّقتُ فيهما . أنيقان وسَوِيان . الحجمُ الصّغير نفسُه ، الشّكلُ المُربّع نفسُه ، السّقفُ المائلُ نفسُه ومدخنةُ الآجرِ القَصيرة نفسُها . شَقيقان في التّصميم المِعماري .

كنتُ هنا ، في قلبِ الأشياء كلّها ، حتى قبلَ أن يصبحا ومضةً

في عينِ أحدِ البنائين . وتَمَدُّدِ جذوري ومُضيِّها في التغلغل خلال المساحةِ الفاصلةِ بينهما ، ما شكّلَ قطّ مصدرَ قلقٍ لي ، فالجذورُ قد تغدو عبثيةً وخارجةً عن السّيطرةِ . وجذوري استكشفَت باطنَ الأرض تحتَ البيتَين ، التفَّت حول أنابيبهما الصّحيّة ، ورسّخت أساستهما .

نشرتُ ظلّي فوقهما بإنصافٍ . أسقطتُ أوراقي عليهما بنسقٍ واحدٍ . رشقتُ سقفيهما بالبلُّوطِ بأعدادٍ مُتساوية .

أنا لَمْ أفضّل أحدَهما عن الآخر .

على مرِّ السنين ، أطلقَ العديدُ من العائلات على هذين البيتَين اسمَ المأوى . أطفالٌ ومراهقون ، أجدادٌ وأجدادُ الأجداد . ألسنتهم صينيةٌ وإسبانيةٌ ، يوربيةٌ وإنجليزيةٌ وفرنسيةٌ كريوليةٌ . أكلوا شطائرَ مكسيكيةً ومعجّناتٍ هنديةً ، ولفائفَ صينيةً وعصيدةً حبشيةً وفطائرَ جبنة محمّصةً .

لغاتٌ مختلفةٌ ، طعامٌ مختلفٌ ، عاداتٌ مختلفةٌ . ذاك هو حيُّنا : جامحٌ ومتشابكٌ ونابضٌ بالحياة . مثل أروع أنواع الحدائق .

قبل شهورٍ قليلة ، استأجرَت عائلةٌ جديدةٌ ؛ عائلةُ سمر ، البيتَ الأزرق . جاءت هذه العائلةُ من بلادٍ بعيدة ، كانت عاداتُها غريبةً ، ولغتُها حملَت موسيقى مختلفةً .

بدا ذلك أنه لا يتعدّى كونَه شتلةً جديدةً في حديقتنا المُلخبطةِ .

لكن في هذه المرّةِ تغيّر شيءٌ ما . اضطربَ الهواء . وسُكّان البيتِ الأخضر اِمتنعوا عن الترحيب بالعائلةِ الوافِدة . في البداية كانت هناك إيماءاتُ تحيّةٍ مُتحفِّظة بين البالغين ، ثم سرعان ما توقّفَت واختفَت .

وجرَت أمورٌ أخرى . قذفَ شخصٌ ما البيضَ النّيئ على البيت الأزرق . وفي عصرِ أحدِ الأيام ، مرّت سيارةٌ مُكتظّةٌ برجالٍ حانقين يزعقونَ بكلماتٍ ساخِطةٍ ، كلماتٍ مثلَ : «اِرحلوا يا مُسلمين!» وأحيانًا تعود سمر من المدرسة يتبعُها أطفالٌ يتهكّمون عليها .

أَحبُّ النّاسَ كثيراً .

وعلى الرّغم من ذلك ،

ما زلتُ ، بعدَ مئتين وستّ عشرة دَورةِ حياة ، غيرَ قادرةٍ على سَبر أغوارِهم .

لطالما رحّبَ حيُّنا بعائلاتٍ عديدةٍ من بلادٍ بعيدةٍ . فما الذي اختلفَ هذه المرّة؟ أهو الوشاحُ الذي تضعُه أمُّ سمر على رأسِها؟ أم هو شيءٌ آخر؟

بينما أخذَ هذا كلُّه يتجلّى أمامي ، أنا الفضوليةُ بِطبعي ،

تفرّغتُ للمراقبةِ ، أرهفتُ السّمع ولاحظتُ . وإن لم أتدخّل قطّ . الأشجارُ مُراقبات نزيهات . نحن من النوع الصامدِ الصامتِ .

إضافةً إلى ذلك ، ماذا يمكنُ أن أفعلَ؟ عندي أطرافٌ نعم ، بَيْد أنّها قادرةٌ على التمايلِ فحَسب . عندي جذعٌ ، لكنه متجذّرٌ في الأرض . وعندي صوتٌ ، غير أن استخدامه ممنوعٌ .

كانت إمكانياتي محدودةً .

وكذلك أيضًا ، كما تبيّن لاحقًا ، كان صَبري .





15

ما دامَ الكائنُ شجرةَ أماني الحَي ، يتحدّث النّاسُ . ولم يستغرِق الأهالي مدّةً طويلةً قبل أن يروا جذعي الذي نُحِتَ بتلك الكلمة القبيحةِ . توقّفَ النّاسُ وحدّقوا . احتشدوا في مجموعاتٍ صغيرةٍ . كشّروا وهزّوا رؤوسَهم وغمغَموا . مع حلولِ ساعةِ الغداء وصلَت الشّرطةُ .

أنا ، في واقعِ الأمرِ ، مُطّلعةٌ على إجراءات القانون . فعَبرَ الشّارع يعيشُ هرّان صَغيران مُنقّطان ، يَهويان تسلّقَ جذعي إلى فروعي العليا . ولسوءِ الحظّ ، لا يُحبّان أن يتراجعا نزولاً . في الشّهرين الأخيرَين ، أُنقِذَ لويس وكلارك مرّتين بوساطةِ فوجِ الإطفاء ، وثلاث مرّات من قِبَل الشّرطةِ .

ساندي وماكس ، ضابِطا الشَّرطةِ اللذان أنقذا الهِرّين في الأسبوعِ الماضي ، ترجّلا من سيارةِ الدورية ليتفحّصاني . عبَسا . فتّشا في العشبِ عن أدلّةٍ . تحدّثا مع المارّة العابرين والتقطا الصّورَ .

«بونغو ،» همستُ ، «أنا مسرحُ جريمةٍ رسمي .»

لكن الدُّعابةَ لم تَرُق لها .

مالكةُ البيتين ، وبالتالي مالِكتي تقنيًا هي التي استدعَت الشّرطةَ . فرانسيسكا : طويلةٌ ونحيلةٌ ، بشعرٍ قصيرٍ رمادي كلونِ حمامةٍ بريّةٍ ، تقيمُ في الطّرف المُقابلِ من الشّارعِ . وتعودُ ملكيةُ البيتين الأزرق والأخضر إلى عائلتها منذُ أجيالٍ عديدةٍ .

فرانسيسكا هي أيضًا صاحبةُ الهرَّين لويس وكلارك ، الزائرَين الجَسورين .

بوجهٍ مُتجهّم قطعَت فرانسيسكا الشارع لتتحدّث مع الشّرطيين . تلوّى كلارِك ولويس متملّصَين من ذراعيها .

«تلك الشّجرةُ ،» قالت فرانسيسكا لساندي التي أخذَت تُدوِّنُ الملاحظات في كرّاسةٍ صغيرة . «لم تُسبّب سوى المشاكل بقدرِ ما تُسعِفني الذاكرةُ .»

لم تكن فرانسيسكا مُطلقًا من النّوعِ العاطفي . وهي تحبّ الهررةَ أكثر من الأشجارِ .

لكلِّ واحدةٍ منّا رأيُها الخاصّ طبعًا. ويصدفُ أنّني أحبُّ الأشجارَ أكثر من الهِررة.

«أوه، لكن الناسَ يحبُّون شجرة الأماني،» قالت ساندي. ثم عَاينتني من الأعلى إلى الأسفل. «مع أنني أتخيَّلُ أنّ هذا يُحمّلكِ ما لا طاقةَ لكِ بهِ.»

«نعم كلّ سنةٍ، في اليوم الذي يَلي يومَ الأماني. أقسمُ أنني سأقطعُ دابِرَ ذلك الشيء،» ردّت فرانسيسكا.

ما قالته صحيحٌ. لكنني عرفتُ أن فرانسيسكا لا تعني ذلك. فأنا وإيّاها علاقَتُنا قديمةٌ.

«التّنظيفُ ليس أسوأ شيءٍ،» تابَعت فرانسيسكا. «بَل الأشياءُ التي يتمنّاها الناسُ! جُنون! في السنةِ الماضيةِ كتبَ أحدُهم أتمنّى الحصولَ على سباغيتي شوكولاتة. بحبرٍ ثابتٍ لا يزول. على لباسٍ داخلي. قذفَه عاليًا جدًّا.»

«سباغيتي شوكولاتة!» هتفَت ساندي. «يطيبُ لي أن أساندَ هذه الأمنية.»

«جنونٌ! أقولُ لكِ.» حدّقت بي فرانسيسكا. «وهيَ في النهايةِ مجرّد شجرةٍ. مجرّد شجرةٍ.»

«مجرّد شجرةٍ!» بدَت كلمةً مُجحفةً بعضَ الشيء. إلا أن

فرانسيسكا لاحَت مُرهقةً وغاضبةً ، ولذا حاولتُ ألا آخذَ ما قالتهُ على محملٍ شَخصي .

أغلقَت ساندي كرّاسةَ المُلاحظات . «يعتقدُ الناسُ ما يُريدون اعتقادَه بخصوصِ الأشجارِ .» حملقَت في الكلمةِ المنحوتةِ . «وبخصوصِ الناسِ كذلك .»

«مَاذا الآن؟» سألت فرانسيسكا .

«لا أدري ،» أجابت ساندي . «الشجرةُ تعودُ لكِ ، وليس للعائلةِ الجديدةِ ، وأنتِ لطالما كنتِ هنا دائمًا .»

أسفر وجه فرانسيسكا عن ابتسامةٍ حزينةٍ . «قد أفترضُ أنني أنا مَن يأملون رحيلَها .»

راقبَت المرأتان ماكس وهو يضعُ شريطَ مسرحِ الجريمةِ الأصفر حول جذعي ، مُستخدمًا أوتادًا معدنيةً . «لا تفكّري هكذا يا فرانسيسكا ،» قالت ساندي .

ثم انضمَّ ماكس إليهما . داعبَ الهرّين اللذين خرخرا بصوتٍ عالٍ . «هناك مشكلةٌ واحدةٌ ، من ناحيةِ توجيه التُّهمة لأحدٍ ما ،» قال ، «هي تاريخُ هذه الشّجرة . النَّاسُ عادةً يضعون أمانيهم أو ما شابه ذلك في شهر أيار تقريبًا . صعبٌ أن نقولَ على وجهِ التأكيدِ أنَّ هذا ليسَ جُزءًا من كلٍّ ، أعني موضوعَ التقاليدِ .» رفعَ

كتفَيه استهجانًا . «هذا على فرضِ أنّنا قد نكتشفُ الفاعِلَ ، كما تعلمين .»

«يُفترض أن تُكتبَ الأمنياتُ على خرقٍ أو قُصاصاتِ ورقٍ ، لا أن تُنحَت في جذوعِ الأشجار ،» علّقت فرانسيسكا . «ولهذا السَّبب ، أُطلِقَ في أيرلندا على هذه الأشجارِ اسمُ أشجار الخِرَق . في الوقتِ الحاضِر ، يكتفي مُعظمُ النّاسِ بربطِ بطاقاتٍ حول غصنٍ بعد أن يكتبوا فيها أُمنياتهم الغريبة .» هزّت كتفَيها وتابَعت : «على أيِّ حالٍ ، كلمةُ اِرحلوا ليسَت أمنيةً ، هي كلمةُ تهديدٍ .»

«صَحيح بالتأكيد ،» وافَقها ماكس .

أشارت فرانسيسكا إلى المّمرات المُتعرّجة والمتشابكةِ التي تؤدي إلى البيتَين . «أُخبركَ شيئًا واحدًا . شجرةُ أمنيات أو غيرُ ذلك ، شجرةُ البلُّوطِ هذه تخرّبُ الأنابيبَ الصّحية أيضًا . الجذورُ تتغلغلُ إلى ما لا نهاية .» هزّت رأسَها . «ربما حانَ الوقتُ فعلاً لقطعِها . لا مزيدَ من الأوراقِ لجرفِها . لا مزيدَ من فوضَى يومِ الأماني . ولا مزيدَ من هذه . . . القَسوة .»

تحرّرَ لويس من قبضةِ فرانسيسكا وقفزَ مسرعًا نحو جذعي . أمسكَته ساندي في الوقتِ المناسبِ .

«نُنهي تَحقيقنا خلال يومٍ أو اثنَين ، فلا تشغلي بالكِ في هذه

الأثناء ،» قال ماكس . «بعدئذٍ أنتِ حرّةٌ في فعلِ ما تشائين بهذه الشَّجرةِ .»

«أتعلمانِ أنَّ أبي ،» قالت فرانسيسكا وهي تأخذُ لويس من ساندي ، «كادَ يقطعُ هذه الشَّجرة قبل سَنوات . ولم تقبَل أمّي . إنَّه تقليدٌ عائلي أو شيءٌ من هذا القَبيل . هُراءُ قلوبٍ رقيقةٍ .» تنهّدت . «الآن أظنُّ أنّ القرارَ يعودُ لي .»

«في أثناء ذلك ، أبقِنا على اطّلاعٍ في حالِ طَرأ شيءٌ آخَر ،» نصحَتها ساندي .

خطَت فرانسيسكا خلالَ العشبِ وهي تحملُ الهرّين بحرصٍ . «اِرحلوا!» غمغَمت بينها وبين نفسِها . «يا لَه من عالَمٍ! يا لَه من عالمٍ هذا الذي نعيشُ فيه .»



16

لو كان أحدكم شجرةً ، فلا بُدَّ من أن تسترعيَ انتباهَه عبارةٌ مِثل «القطع» .

لمَحت فرانسيسكا إلى تصرّفاتٍ مُشابهةٍ من قَبل ، لكن دائمًا على سبيل المزاحِ . بعدَ أن تقضي عصرَ يوم طويلٍ في شهرِ تشرين الثَّاني وهي تجرَفُ أوراقي المتساقِطة حديثًا ، وتكوِّمها في تلالٍ هشَّة . أو بعدَ يومِ أمنياتٍ فَوضَويّ جدًا . أَو بعدَ أن تدوسَ حافيةً على جوزِ البلُّوطِ .

شَعرتُ بالذَّنبِ حيالَ الممرات . إنّها مَخاطِر مِهنيةٌ . إذ لأبقى على قيدِ الحياةِ ، أحتاجُ إلى شبكةِ جذورٍ مديدةٍ . والجذورُ يمكن أن تكونَ في مُنتهى المتانةِ .

«أسَمِعتِ ما قالته؟» سألَتني بونغو وهي تراقبُ فرانسيسكا تدخلُ بيتها . «بدَت حازمةً هذه المرّة .»

«سَمعتُه كُلّه من قَبل ،» أجبتُ .

«لسوءِ الحظِّ ، سمعها المُستجِدّون أيضًا ،» قالت بونغو .

تدعو بونغو كلّ نسلٍ جديدٍ من الأطفالِ الرُّضَع «مستجِدّون» ، وتتظاهرُ بالانزعاجِ من ألاعِيبهم . لكنني أعرفُ الحقيقةَ .

«اِستمعي ،» حثّتني بونغو .

كما هو مُتوقّعٌ ، سمعتُ صِغار الظّرابين تنوحُ من جُحرها المُتواري تحت الرواقِ . «لكن نحن نَحبُّ حمراء يا ماما!» نشجَ أحدهم .

«اِصمتوا ،» وبّخَتهم أمّهم خبزٌ طازج . «إنّنا في منتصفِ النّهار ، ويُفترضُ بِكم أن تَناموا . أنتُم مخلوقاتٌ غَسقية .»

تنشطُ المخلوقاتُ الغَسقية على وجهِ الخصوصِ في الغسقِ والفجرِ ، مثلَ اليراعاتِ والوطاويطِ وذُباب الأيلِ .

«هَل ستكونُ حمراءُ على ما يرامُ يا ماما؟» سألها صوتٌ آخَر ، عرفْتُ من جرسِه أنّه صوتُ بتلةِ الوردِ .

تطلقُ الظرابينُ على أنفسِها أسماءً تشيرُ إلى الروائحِ اللطيفةِ .

ولَستُ متأكّدَةً ما إذا كان هذا يعودُ إلى أنّ حساسيتها تجاهَ سُمعتها تجعلها دفاعية ، أو أنها فقط تمتلكُ حسًا فكاهيًا ماكِرًا .

«طبعًا ،» أجابت الأمُّ . «حمراءُ راسِخة .»

نظَرَت بونغو إلي . «أترَين ما أعني؟»

«أوه يا ربّي!» هتفتُ . «بحلولِ الليلِ سينتشرُ الخبر بين الجميع : حيوانات الأبوسوم ، حيوانات الرَّاكون ، البوم... وهارولد الصَّغير سيشتعلُ غضبًا .»

كان هارولد أصغرَ كتكوتٍ من جماعةِ البومِ الأبيض . وهو بطبعِه شديدُ القلقِ .

البومُ الأبيضُ يُطلق على نفسِه أسماءً حكيمةً تَخلو من البهرَجة .

«سأتحدّثُ إلى الجميع ،» قالت بونغو . «أهَدئ من روْعهم ، وأطلبُ منهم ألّا يقلقوا .»

«أنا واثقةٌ من أن الأمورَ ستكونُ على ما يُرام ،» قلتُ . «رأيتُ الكثيرَ في حياتي . وما قلقتُ منه ، لم يحدُث قطّ! يُمكنني أن أؤلفَ كتابًا عن تلك الأشياء .» سكتُّ لحظةً . «في الحقيقة أنا نفسي يمكنُ أن أكونَ كتابًا .» سكتُّ من جديدٍ . «إذ كما تَعلمين . . . الورقُ يُصنَع من الأشجارِ .»

أطلقَت بونغو ضحكةَ غرابٍ ثاقِبة . ولم تحاول حتّى أن توبِّخني على طُرفتي المُلتوية .

وهُنا بدأ القلقُ يَعتريني .





17

بِقدرِ ما أقلقَني ردُّ فعلِ أطفال سُكّاني بسببِ كلام فرانسيسكا ، قلقتُ على سمر . ماذا سيحدُث عِندما تعودُ من المدرسةِ ، وترى جذعي الموشوم بتلك الكلمةِ؟ هل ستعتقِدُ أنّها تقصِدها ، وتقصدُ عائِلتها ، كما تَراءى لفرانسيسكا والشُّرطةِ؟

عادت إلى البيتِ وحدَها . أمّا ستيفن فكان يتقدَّمها ببضعِ ياردات .

عندَ الرّصيف وقفَت مُراسلةُ صحيفةِ الحَي لِتُجري مُقابلات مع المارَّةِ . الخبرُ في ناحِيتنا ينتشرُ بسرعةٍ . خصوصًا عِندما يتضمّنُ شريطَ الشّرطةِ الأصفَر .

أشَاهَدوا ما حدَث؟ استمرَّت المراسِلةُ تسأل . أقاموا يومًا بالتعبير عن أمنياتهم في يومِ الأماني؟ ما يَبدو لهم معنى كلمةِ اِرحلوا؟

اقتربَت المراسلةُ مِن ستيفن . أيَعرفُ لِماذا قد ينحتُ شخصٌ جذعَ شجرةِ الأماني المَحليّةِ المَحبوبة بكلمةِ اِرحلوا؟

حدّق ستيفن في المُراسلةِ . ثم ألقى نظرةً على سمر ، وأرسلَ لها طيفَ ابتسامةٍ حزينةٍ . ومن غيرِ أن يردّ بشيءٍ توجّه إلى بيتهِ .

تردّدت عَينا سمر بيني وبين ستيفن والمُراسلةِ . اقتربَت منّي مسرعةً ، رأت الكلمةَ وشهقَت . مدّت يدَها نحوي ، لكن شريطَ الشّرطةِ جعلَني بعيدةَ المنالِ .

«أأنتِ مِن المُقيمين هنا؟» سألَتها المراسلةُ . «أترغَبين في التعليقِ على الحادثةِ؟»

لم تنبِس سمر ببنتِ شفةٍ . اِستدارت ومشَت ثم ارتقَت الدَّرجَ المتعرّجَ المُؤدي إلى البيتِ الأزرقِ الصّغير ، شامخةَ الرأسِ وراسخةَ القدمين .




18



حَوالي السادسةِ في ذلك المساءِ، عادَ ماكس وساندي. عِندما قَرعا بابَ البيتِ الأخضرِ، فتحَ لهما والِدا ستيفن وأجابا عن الأسئلة. هزّا رأسَيهما، رفَعا أكتافهما. ثمَّ أغلقا البابَ وأسدلا الستائرَ.

ولّما قرَعا بابَ البيتِ الأزرقِ فتحَه والِدا سمر وأجابا عن الأسئلةِ. فرَكا عيونهما، تنهّدا. ثمَّ، هُما أيضًا أغلقا بابَ البيتِ وأسدلا الستائِرَ.

بينما توجّه ماكس وساندي عائدَين إلى سيارة الشّرطة، تريّثت ساندي أمامي.

«أتساءلُ ما إذا يجدرُ بنا أن نتمنّى شيئًا!» قالت . «قد تكونُ هذه فُرصَتنا الأخيرةَ .»

«سأُخبركِ ما هي أمنيتي ،» قال ماكس ، «أتمنّى لو أنني لا أضطرُ إلى تحرّي أمورٍ كهذه .»

رَبتَت ساندي كتفَه . «لن أتوقّعَ أن تتحقّق هَذه الأمنِيةُ .»

أمّا بالنسبةِ لي ، فقد صرفتُ ساعاتِ المساءِ أُطمئِن الذين يَدعونني بَيتهُم سَواء الأهالي مِنهم أو نَسلهم الجَديد . وهم طبعًا لم يقلقوا فقَط بسببِ اِضطرارِهم إلى الانتقال إلى مساكنَ أخرى ، بل أيضًا أقلقَهم المصيرُ الذي يَنتظرني .

أنا أيضًا أقلقَني مصيري . لم أرغَب في أن أرحلَ عن العالمِ الذي أحببتُ كثيرًا . أردتُ أن أقابلَ كتاكيتَ البوم في الربيعِ القادِم . أردتُ أن أُطريَ شجرةَ القيقبِ عندما تتضرّجُ بالحُمرة كحُمرة الغروبِ . أردتُ أن تمعِن جُذوري في الامتدادِ ، وأن تبلغَ فروعي عنان السّماء .

لكن هذا شعورٌ طبيعيّ عندما تحبُّون الحياةَ . وفي وسعي أن أتقبّلَ فكرةَ أنّ نهايتي قد حانت ، لو أنّها حانت . إذ ، بعدَ حياةٍ طيّبةٍ كحَياتي ، مَن أنا لأَحتجَّ؟

مع ذلكَ كنتُ قلقةً على الأطفالِ ، وعلى ذَويهم وهم

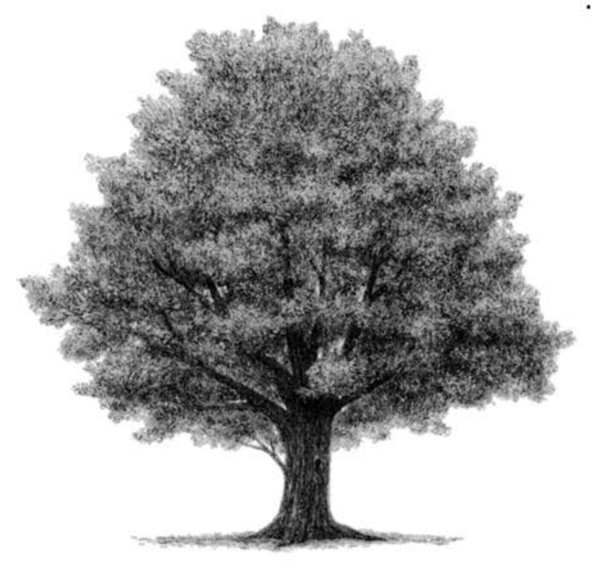
يتخبّطونَ بحثًا عن أماكِنَ جديدةٍ وآمنةٍ ليُحدّدوا خطوطَ أعشاشِهم ، ليحفِروا جُحورهم ، وليُخبئوا مدّخراتهم الشّتويةِ من البلُّوطِ .

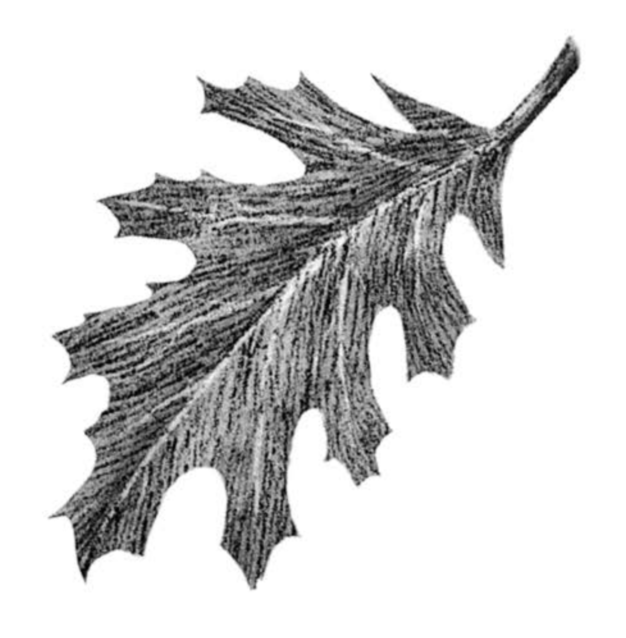
الأهمُّ من كلِّ ذلك ، كنتُ قلقةً على سمر .

لا أدري لِماذا حقًا . ربّما لأنّها ذكّرتني كثيرًا ببنتٍ أخرَى مِن زمنٍ آخر ، مُنذ عهدٍ بعيد . بنتٌ صغيرةٌ نجحتُ في تأمينِ الملجأ لها .

إنّها أمُّ جدَّةِ فرانسيسكا .

نعم ، كما سبقَ أن قلتُ . عَلاقتي أنا وفرانسيسكا مُوغلةٌ في القِدم .





19

بعدَ مُنتصف الليل بفترةٍ طويلةٍ جاءت سمر لِزيارتي . كانت تلبسُ عباءةً زرقاءَ . شعرُها الأسودُ المجعدُ مربوطٌ على شكلِ ذيلِ حصانٍ بعُقدةٍ رخوةٍ . عيناها مُترعتان بضوءِ القمرِ . جَلستْ على بطّانيتها عندَ قاعدةِ جِذعي . لَم تنظُر إلى الكلمةِ المنحوتةِ ، ولا إلى القمرِ الفضّي ، أو البيتَين الأزرَق والأخضَر . اكتفَت بالجلوسِ ساكنةً وانتظرَت .

ما حدثَ بعدَ ذلك كان دائمًا يستغرقُ وقتًا ، لكنّه يحدثُ دائمًا .

واحِداً بعدَ الآخر ، غامَر أطفالُ سُكّاني وخَرجوا لِرُؤيتها .

كان هارولد أوّلَهم، رفرفَ بجناحَيه مربكًا وحطّ على الأرض. ثم جاء بعدَه صِغار الراكونِ، يو ويو ويو. (معروف عن أمّهات الرّاكون أنهنَّ كثيرات النّسيان، وبالتالي لا يُلقين بالاً إلى الأسماءِ التّقليدية.) ثمّ صِغار الأبوسوم. والظّرابين. جاؤوا كلّهم.

جَلسَت سمر بِلا حراكٍ. وأحاطَ بها الأطفالُ. وهكذا استرخى الجميعُ في كنفِ لألاءِ شعاعِ القمر واستمَعوا إلى حفيفِ أوراقي.

استقرّت بونغو على كتفِ سمر. «مرحبًا،» قالَت، مُقلّدة صوتَ سمر بنسخةِ الغربانِ.

«مرحبًا،» ردّدت سمر رجعَ الصّدى.

نعقَت بونغو فجفلَت سمر قليلاً. إذ حتّى أهدأ نعيبِ غرابٍ يميلُ نوعًا ما إلى الحِدّة. طارت بونغو إلى أصغرِ تجويفٍ في جِذعي وحشرَت رأسَها داخله، وبقيَ ريشُ ذيلِها مَرئيًا. ثم عادت إلى الأرضِ أمام سمر. وبلطفٍ وضعَت في يدِ سمر المبسوطةِ مفتاحًا فِضّيًا مُنمنمًا ومعلّقًا بشريطٍ أحمَر باهتٍ.

«إنّه جميلٌ!» همسَت سمر. «شكرًا.»

انحنَت لها بونغو وفردَت جناحيها بما يُشبه القَوس. كان هذا

في عُرفِ الغربان دلالةَ مَودّةٍ عظيمةٍ .

سبقَ لي أن رأيتُ ذلك المفتاحَ . ورثَته بونغو من أمّها . تعيش الغربان عادةً في عوائِل كبيرةٍ ، وهي تمرّر المعلوماتِ والأشياء عبرَ الأجيالِ . ولم يُفاجئني أنّ المفتاحَ ما زال لدَى بونغو ، أو أنّها قرّرت أن تهديَه لسمر .

في الهدوءِ الحُلوِّ المطوّق بكلِّ شيءٍ أحببتُه ؛ ضوءُ القمرِ والهواءُ والعشبُ والحيواناتُ والأرضُ والنّاسُ ، تساءلتُ بغصّةٍ : ما المدّةُ التي سأبقَى فيها قادرةً على التلذّذِ بمثلِ هذه اللحظات .

تَساءلتُ أيضًا ، ما إذا كنتُ قد قدّمتُ ما يكفي للعالَم الذي أحببتُ . كان هذا شيئًا سبقَ أن تساءلتُ عنه من قَبل . بَيْد أنّ الموتَ الوشيكَ له طرقُه الخاصّة في تركيزِ الانتباهِ .

بالتأكيد ، زوّدتُ البيئةَ بكثيرٍ من الظّلِ . صنعتُ مُحيطاتٍ من الأوكسجينِ للنّاسِ كي يتنفّسوا . كنتُ بيتًا لمواكِبَ لا نِهائيةٍ من الحيواناتِ والطّيورِ .

لقد قمتُ بِواجبي . الشّجرةُ ، في نهايةِ المطافِ ، مجرّدُ شجرةٍ . وكما أخبرتُ بونغو : «ننمو كما يَنبغي أن نَنمو ، كما قرّرت بُذورنا منذ عهدٍ بعيدٍ .»

لكن . . .

بعدَ مِئتين وستّ عشرةَ حلقةٍ . بعد ثمانمئة وستٍّ وأربعين فصلاً ما زال هناك شيءٌ مفقودٌ . حياتي كانت . . . كانت آمنةً جدًا .

في طابقِ البيتِ الأخضرِ العُلوي اهتزّت ستارةٌ ، وخلفَها وقفَ ستيفن يُراقبنا .

خمّنتُ ما راحَ يجولُ في فكرِه . إحدَى مَزايا الاستماعِ الجيّدِ أنكم تتعلّمون الكثيرَ جدًا عن الأساليبِ التي يَنتهِجها العالمُ .

في عَيني ستيفن ، في الطريقةِ التي نظرَ بها إلى سمر في عصرِ ذلك اليوم ، رأيتُ شيئًا سبقَ أن رأيتُه عدّةَ مرّاتٍ من قَبل .

رأيتُ أمنيةً .



20

بعدَ أن غادرَت سمر شعرتُ بالاضطرابِ .

الاضطرابُ ليس مِيزةً حميدةً في الأشجارِ .

نحن نتحرّكُ بتدرّجاتٍ بسيطةٍ ، خَليّةً بخليّةٍ ، تُوغلُ جذورُنا في الامتدادِ ، براعمُنا تتفتّح وتندفعُ لتتلقّفَ أشعةَ الشّمسِ . أو نتحرّك لأنّ شخصًا ما يَزرعُنا في موقعٍ جديدٍ .

عِندما يكون أحدُكم شجَرةَ بلُّوطٍ أحمَر ، لا جدوَى هناك في الشُّعورِ بالتململُلِ .

الأشجارُ ، كما قُلتُ ، خُلِقت لتستمعَ ، لتلاحظَ ، ولتتحمّل المشقّة . على الرّغم من ذلك ، ولو مرّة واحِدة ، قبل أن أقولَ وداعًا

للعالَم، ما يمكنُ أن يحدثَ في حالِ قمتُ بشيءٍ آخَر عدا التصرُّفِ بسلبيةٍ؟ في حالِ لعبتُ دورًا فعَّالاً في القصصِ التي تنجَلي من حَولي؟ بل ربّما حتّى إذا جعلتُ الأمورَ أفضَل قليلاً.

«بونغو،» قلتُ بصوتٍ هامسٍ. «أنتِ مستيقظةٌ؟»

«أصبحتُ كذلكَ الآن،» تذمّرت بونغو.

«عِنْدي سؤال.»

«سأوافيكِ في الصّباح قبلَ أيّ شيءٍ.»

«كَيفَ تحدثُ الصداقةُ؟»

رَدَّت بونغو بالشّخيرِ.

لم يخْفَ عليَ أنّه شخيرٌ مصطنعٌ. فشخيرُها الطّبيعي عالٍ جدًا بحيث أنّه يُخيف حيوانات الأُبوسوم الصِّغار.

«أَنا جدّية!» قُلتُ.

أنَّت بونغو. «لا أعرِف، الصداقةُ شيءٌ يحدثُ فقَط.»

«لكن كَيف؟»

«لدَى الأصدقاءِ أشياءُ مشتركةٌ،» أجابت بونغو. «وها قَد عرفتِ الآن. جوابُ سؤالكِ في بضعِ كلماتٍ. أراكِ في الصّباح يا رفيقتي.»

فكّرتُ في جوابها. «لكن، ما المشتركُ بيني وبينكِ، عندما

نمعنُ التّفكير في ذلك حقًا؟»

بِزفرةٍ عاليةٍ طارت بونغو وحطّت على الأرض. «طَيّب. صحوتُ تمامًا الآن، شكرًا جزيلًا. ماذا يدور في ذهنكِ؟»

«مجرّد فكرةٍ.»

«إليكِ هذه الفِكرة: الأفكارُ فكرةٌ سيئةٌ،» قالت بونغو. «خصوصًا إذا كان أحدُهم من النّوعِ الفضولي. وأنا أنظرُ إليكِ الآن يا حمراء.»

«لِنَعد إلى سؤالي. لماذا نحن صَديقتان؟»

«حسنًا، لا بأس. اِمنحيني دقيقةً للتفكيرِ.»

تمشّت بونغو ببطءٍ وهي تدورُ حول جذعي، متفكّرةً في سؤالي. أَحبُّ طريقةَ تحرُّك الطيورِ. طريقةٌ مختلفةٌ جدًا عن طريقةِ الأشجار. نحنُ نحني أمام الرّيحِ. نحن نتميّزُ بالجمالِ والتّرَوي. الطيورُ من ناحيةٍ أخرى، تتحرّكُ بِرفرفةٍ واختلاج. رؤوسُها تَتذبذبُ من جهةٍ إلى أخرَى، كما لو أنّها سمعَت للتوّ أخبارًا مدهشةً.

توقّفت بونغو. «حسنًا، كبدايةٍ أنتِ بيتي، وأنا مُستأجِرةٌ عندكِ.»

«لكن ذلك لَيسَ حقًا سببًا فعليًا لنكونَ صديقتَين. لطالما جاءني سُكّانٌ لم أكُن على وجهِ الدّقةِ مولعةً بهم.»

«ذلكَ السّنجابُ؟ ما كان اسمُه؟ سكوينش؟ ذاكَ صاحبُ رائحةِ الفمِ الكريهةِ؟»

«هذا لَا يهمُّ الآن .»

«عرفتُ أنّه سكوينش .»

«بونغو!» هتفتُ ، «ركّزِي رجاءً .»

نظرَت إليَ بونغو مليًا . «نحن صَديقتان لأنّنا صديقتان يا حمراء . أليس هذا كافيًا؟» كان صوتُها رقيقًا ولطيفًا (ليس كصوتِها المُعتاد الذي يحملُ نغمةَ ادخلي صلبَ الموضوعِ .)

«أنتِ مُحقّة ،» قلتُ . «لكن افترضي أنّ هناك شخصَين يحتاجان إلى أن يَغْدُوا صديقَين . كيف تجعلين هذا يتحقّق؟»

«ربّما... أجمعُهما ، لِيفعلا شيئًا معًا . يتبادلانِ طُرفة ، يتشاركان ضحكةً ، ثم ، تأتي الصداقةُ . أأنا على صوابٍ؟»

«همممم .»

«لا يُعجبني عندما تُهمهمين . الهمهمةُ تقودُ إلى الأفكارِ .»

«يمكنكِ أن تعودي إلى النّومِ يا بونغو . أشكركِ على المحادثةِ . أنتِ صديقةٌ جيّدةٌ .»

«وأنتِ كذلك ،» قالت بونغو وهي تعودُ إلى عشِّها . «اِسمعي ، تأكّدي من أن تتركيني أنامُ .»

«بونغو؟»

«ماذا الآن؟»

«أمرٌ آخَر فقط . لماذا برأيكِ يميلُ النّاسُ أحيانًا إلى التعامِل مع بعضِهم بقسوةٍ؟»

«وكأنّنا نحن باقي المخلوقات من الملائكةِ . ليلةَ أمسِ رَأيتُ أغنيس تلتهِمُ سحليةً بلقمةٍ واحدةٍ .»

أغنيس ، البومةُ البيضاءُ التي تعيش مع كَتاكيتها في أعلى تجاويفي ، خفقَت بجناحَيها مُبديةً انزعاجَها . «يا هَذه ، على البنتِ أن تأكلَ . وأنتِ ، كأنَّه لا غبارَ عليكِ لِتقولي هذا الكلامَ يا بونغو ،» دمدَمَت . «أهناكَ شيءٌ تمتنعُ الغربان عن أكلِه؟»

«ما أرمي إليهِ ،» تابعَت بونغو ، «هو أن العالَم مكانٌ صعبٌ . ولا يهمّ إذا كنتِ أرنبًا أو سحليةً أو طفلاً .»

بهذه الخاتمةِ تصاعدَ شخيرُ بونغو - شخيرٌ حقيقي هذه المرّة - أمّا أنا فبقيتُ مُستيقظةً تمامًا .

«مَامي ، ما هذه الضّجةُ المُخيفةُ؟» تعالَى صوتٌ فزِعٌ من أحدِ صِغار الأبوسوم .

«إنّه شَخيرُ بونغو النّائِمة فقط ،» أجابت الأمُّ .

كانت بونغو على حقّ . كنتُ أتدارسُ فكرةً .

هيَ تزعمُ دائماً أنّني شجرةٌ فضوليةٌ ، من غيرِ الحاجةِ إلى ذِكرِ أنّني شَجرةٌ متفائلةٌ .
شجرةٌ متفائلةٌ تتدخّلُ في شؤونِ الآخَرين .
حَسناً ، هناكَ على أيّ حالٍ أشياءٌ أسوأ .
معروفٌ عن الأشجارِ أنّها صامدةٌ وصامتةٌ .
إلا إذا كانت الحقيقةُ خِلاف ذلك .



















21





«بونغو،» ناديتُها باكرًا في ذلك الصّباحِ بينما بهتَت النّجومُ الأخيرةُ مثلَ اليراعاتِ المُرهَقةِ، «ثمّة ما أحتاجُ أن تفعليه.»

«هَل يَتضمّنُ رقائقَ البطاطِس؟» غمغمَت بونغو.

«لا.»

«أُفضّلُ إذًا أن أنام.»

«إنّه يخصّ سمر.»

«وَعدتِ أن تتركيني أنام.»

«أنا لَمْ أَعِد.»

«وافقتِ ضمنًا.»

«أُريدُ تحقيقَ أمنيةِ سمر .»

هذا حرّضَ بونغو على النّهوض . صفَقت جناحيها نازلةً إلى غُصنِها المُفضّل ، الغصنِ الذي تُسميه صحنَ الدّار . (تحبُّ بونغو التفرُّجَ على الأطفال يلعبون البيبسبول في المدرسةِ الابتدائيَّة .)

«هه يا حمراء ، أنتِ لا تُحققين الأماني . أنتِ المكانُ الذي تودعُ فيه الأماني . أنتِ مثل . . . سلّةِ قمامةٍ مُورقةٍ . بمعنى جيّدٍ طبعًا .»

«على مدَى مِئتين وثلاثين دورة حياةٍ ، جثمتُ على جذوري واستمعتُ إلى النّاسِ يأملون بِتحقّقِ أمنياتهم . وفي كثيرٍ من الأوقاتِ لم تتحقّق تلك الأماني قطّ ، حسب ما أفترضُ .»

دسَّت بونغو ريشةً في مكانها . «هذا أحيانًا من أجلِ الأفضل . أتتذكّرين طفلَ الروضةِ ذاك الذي تمنّى الحصولَ على بلدوزر؟»

«أنا سلبيةٌ . لا أفعلُ شيئًا سوى الجلوسِ هنا ومُراقبةِ العالم .»

«أنتِ شجرة يا حمراء . هذا وصفُ نَوع وظيفتك .»

«إنّها أمنيةٌ جيِّدةٌ . وهي أمنية يُمكنني تحقيقُها .» سكتَتْ قليلاً . «حسنًا ، يُمكننا معًا أن نجعلَها تتحقّق .»

«نعم ، اِنتابني شعورٌ بخصوصِ إلى ماذا سيؤدي هذا ،»

أجابَت بونغو وهي تنزلقُ نحو الأرض . «انظُري ، لقد سمعتُ أمنيةَ سمر . فكيف بالضّبطِ ستجدين صديقًا لها؟»

«سترَين ،» قلتُ آملةً في سرِّي أن أشعرَ بالثِّقةِ مثلما بَدا وَقعُ صوتي .

«اسمعي يا حمراء ،» بدأت بونغو وهي تذرعُ الأرضَ ذهابًا وإيابًا ورأسُها مع كلّ خطوةٍ يندفعُ أمامَها . «لدينا قضَايا أهمّ يا رفيقتي : حديثُ فرانسيسكا عن تحويلكِ إلى أعوادِ تنظيف أسنانٍ . وجهلُ سُكّانكِ بمكانِ انتقالِهم إذا وقعَت الفاجعة ، جعلهم يُصابون بجنون الخوف .» ثم دنَت منّي ودفَعتني بمحبَّة . «طبعًا ، هم قلِقون عليكِ أيضًا .»

«أَعْرفُ .»

أخرجَت خبزٌ طازجٌ رأسَها من تحتِ الرواقِ . والوقتُ لا يكاد يكون فجرًا ، ولم يظهَر منها بوضوحٍ إلّا الخطُّ الأبيضُ الممتدُّ على طولِ وجهِها .

«عَرَضتُ أَنْ أستضيفَ إحدى عوائِل الشَّجرةِ مؤقّتًا ،» أعلنَت . «وأفضِّلُ حيوانات الأُبوسوم ، فتصرفاتُها أحسن من تصرّفاتِ عائلةِ الـ يو .»

«هذا كرمٌ عظيمٌ منكِ يا خُبز طازَج ،» قلتُ ، إلّا أنَّ أُمَّ صِغار

الرَّاكون «يو الكبيرة» قاطَعَتني . كانت واقفةً في تجويفي الكبير ، تتذمَّرُ من بين أنفاسِها .

«أستميحكِ عُذراً ،» صاحتْ . «يتميّز صِغاري يو ويو ويو بأخلاقٍ حميدة!»

«هؤلاء الصِّغار حشَريون كثيرًا ،» قالت خبزٌ طازَج . «يحشرون أنوفَهم دائمًا حيث يجبُ ألّا تكون . وأَكُفّهم الصّغيرة تلكَ تعبثُ بمختلف الأشياء .»

«جيِّد ، على الأقلّ رائحتُهم ليست نَتنةً!» زعقَت يو الكبيرة . «وصغارُكِ أيضاً لديهم أكُفّ ، كما رأيتُ عندما تفحّصتُهم آخِر مرّةٍ .»

عناكِب مَشعرانية ، أمّ حيوانات الأُبوسوم ، تلصّصت بحذرٍ من داخلِ جُحرها الخاصّ .

تطلقُ حيواناتُ الأُبوسوم على أنفسِها أسماءَ الأشياءِ التي تخافُ منها .

«النتانةُ في أنفِ مَن يشمُّها ،» قالت عناكبُ مَشعرانية . «مع أنّني أنا شخصيًا أعتقدُ أن رائحةَ أطفالكِ لطيفةٌ يا خُبز طازَج ، سبقَ أن استخلصتُ لنفسي مَأوى في كومةِ الحطبِ على بُعد بابَين نزولاً . في حالِ حدثَ شيءٌ للغاليةِ حمراء ،» ثمَّ ربّتتني .

«لا أقصدُ الإهانةَ يا حبيبتي . أنا فقَط أُخطّط مُسبقًا ، كما تَعلمين .»

«لم أعتَبِرها إهانةً ،» طَمأنتُها .

«أنا رأيتُ الكومةَ أولًا!» صاحَت يو الكبيرة .

«شاركي الظَّرابين جُحرها ،» قالت عَناكب مَشعرانية .

«لن تروني ولا حتَّى ميتةً في ذلك المكان!» هتفَت يو الكبيرة .

«ليسَ الآن . الآن وأنا أعرفُ أنّ صِغاري الفُضوليين غير مرحَّبٍ بهم .»

«حَسناً ، أطفالكِ مُشاغبون نوعاً ما ،» علّقت عَناكب مَشعرانية .

«على الأقلّ أطفالي يتمتعون بالجسارةِ ،» قالت يو الكبيرة . «أمّا أطفالكِ فيغيبون عن الوَعي عندما يرون ظلَّهم .»

«تظاهُر الأُبوسوم بالإغماء طريقةُ تأقلم مُفيدةٌ ،» هتفَت عَناكب مَشعرانية وأنفُها القرنفليُ يختلجُ . «العالَم مكانٌ خطرٌ . ونحن في جميع الأحوال لا نستطيعُ التحكّمَ به . إنَّه واقعٌ لا مفرَّ منه .»

«اِسمحوا لي أن أقاطعَ النّقاشَ ،» جاء صوتُ هادئ من أغصاني العُلوية . كانت تلكَ أغنيس . «هناك شجرةُ زيزفونٍ حسنةُ المظهرِ على بُعد مُربَّعين سكنيَين من هنا ، أُخلِيَت توًا من عائلةِ سناجِب

رماديةٍ . ونحن ننظرُ إليها باعتبارِها مأوى محتملًا . لكن ثمة قِطٌّ يجري طليقًا في تلك النَّاحيةِ ، لديه طوقٌ من دون جرسٍ ، وتلك مشكلة . وهناك أيضًا كلبٌ ضخمٌ يسيلُ اللعابُ من فمِه .»

«في الحقيقةِ ، يسيلُ اللعابُ من أفواهِ الكلابِ كلِّها ،» علَّقت بونغو .

«أَرى حقًّا أنّه يجبُ على الجميعِ أن يهدأ ،» قلتُ مُقاطعةً النِّقاشَ . «علينا ألَّا نستبقَ المشاكِل . كلّ يومٍ بيومه يا جماعة . مَن يدري ما قَد يأتي به الغَد؟»

ألقَت عليَ الأُمَّهاتُ نظراتٍ حانقةً . وسمعتُ كمًّا هائلاً من التّنَهدات .

«شجرةٌ مُعمَّرةٌ حكيمةٌ أكثرُ ممّا ينبغي؟» سَألتُ .

«نعم ، شجرةٌ مُعمَّرةٌ حكيمةٌ أكثرُ ممّا ينبغي ،» أكّدَت بونغو ، بينما تراجَع سُكَّاني إلى بيوتِهم بغضبٍ .

«سُكّانكِ مُنفعلون قليلاً ،» قالت بونغو . «قَلقون على . . . على مصيركِ .»

«أستطيعُ أن أرى هذا .»

«أَنا قلقَة أيضًا ،» أردفَت بونغو بما يشبهُ الهمسَ .

«أَعْرفُ ،» أجبتُ بلطفٍ . «لكن وراءَ كلّ غيمةٍ . . .»

«حمراء ،» قاطعَتني بونغو .

«آسفة .»

«لا بُدَّ من أن يكونَ هناك شيءٌ يُمكنني أن أفعلَه ،» قالت بونغو .

«أنتِ صديقةٌ جيّدةٌ يا بونغو . لكن أحيانًا ما من شيء يمكن فعلهُ سوى أن نقفَ برؤوسٍ شامخةٍ وأقدامٍ راسخةٍ .»

«حمراااااء!»

«آسفة ،» قُلتُ مرَّةً أخرى .

«ماذا أفعلُ مِن دونكِ يا حمراء؟» غمغمَت بونغو بهدوء .

«ستكونين بخيرٍ يا صديقتي . أعدكِ»

ثم غرقنا معًا في الصَّمتِ .

أخيرًا انتفضَت بونغو ، ونفشَت ريشها . «في أي حال من الأحوال ، أرى من وجهةِ نَظري أنَّ هذا ربّما ليسَ الوقتَ المناسبَ لِتحقيق الأماني .»

«يَبْدو لي أنّ هذا بالضّبطِ الوقتُ المناسبُ ،» قلتُ .

أطلقَت بونغو زمجَرتها الشَّبيهة بزمجرةِ رجلٍ مُسنٍّ .

أدركَت أنّني لا أنويَ التَّراجُع .

وعندَ هذا الحدِّ ، بادَرنا إلى إعدادِ الخططِ .









22

نفّذنَا الخطّة رقَم واحِد بعد ساعةٍ ونِصف ، عندما انطلقَ ستيفن متوجِّهًا إلى المدرسةِ .

لم يكُن قد وصلَ بعدُ إلّا إلى الرّصيفِ عندما انقضّت بونغو على حقيبةِ ظهرِه مباشرةً ، وأعملَت مِنقارها في السَّحابِ وهي تطلقُ نعيقًا جامِحًا .

عندما تُريدُ الغربانُ أن تكونَ صاخِبةً ، يُمكنها أن تنعقَ بصوتٍ عالٍ جدًا .

«ما هَذا؟» صاحَ ستيفن . «ما خَطبكَ يا غُراب؟» ثم أسقطَ حقيبتَه على الأرض .

حطّت بونغو على حقيبةِ الظّهرِ، وهي تنظرُ إلى ستيفن باستعطافٍ. «رقاقةُ بطاطِس لو سمحتَ،» قالت. دوّر ستيفن عينيهِ. «بِلا مزاحٍ؟»

«مرحبًا،» هتفَت بونغو. «رقاقةُ بطاطِس لو سمحتَ.»

وَضعَ ستيفن يديه على وِركَيه. «طَيّب، لا بَأس. سبقَ أن رأيتكَ يا غراب وأنتَ تندفعُ نحوَ خطٍّ الحافلةِ.»

حطّت بونغو أرضًا بينما حلّ ستيفن سحّابَ حقيبةِ الظّهر. «أنتَ رائعٌ!» قالت بأدبٍ.

أخرجَ ستيفن عُلبةَ غدائهِ وفتحَها. «لِنرى ما لديَ. معي شطيرةُ سمكِ تُونا، وأصابعُ جزرٍ و...»

لكن قبلَ أن يتسنّى له أن يضيفَ المزيد، غاصَت بونغو في حقيبةِ الظّهر، نشلَت ورقةً واندفعَت تُحلّقُ نحو السَّماء.

«يا غُراب! ذلكَ وَاجبي الإنجليزي!» زعَق ستيفن. «عُد إلى هُنا يا لِصُّ!»

حلّقت بونغو عاليًا ثم حطّت على أحدِ فروعي مُطلقةً نعيقَ انتصارٍ.

طارَدَها ستيفن وراح يدورُ حول قاعِدة جِذعي، حيثُ شريطُ الشرطةِ الأصفرِ يطوّقني.

«مِن فضلِك يا غراب ،» توسّل . «سأعطيك شطيرتي كلّها . رجاءً؟»

جثمَت بونغو على الورقةِ ، مُحرّرةً منقارها . «أبدًا!» قالت .

استسلمَ ستيفن أخيرًا بعد عدّة دقائق من التّذمُّرِ . «عَظيم ،» تمتمَ وهو يمسكُ حقيبةَ الظهر . «لن تصدّقَني الآنسةُ كيليرمان عندما أخبِرها أنَّ غرابًا أكلَ واجِبي المدرَسي .»





23

عِندما غادرَت سمر بيتَها ، كان الوقتُ قد حان لتنفيذِ بقيةِ خطتِنا .

تَريّثَت ، كما تفعلُ دائمًا ، لتقولَ مرحبًا ، وبونغو ، كما تفعَل دائمًا ، ردّت السّلام . بَيْد أنّها هذه المرّة فاجأت سمر بالهبوطِ على كتفِها ، حيثُ أظهرَت لها ورقةً متجعِّدة . أخذَت سمر الورقةَ من بونغو . «عليها اسمُ ستيفن! ما جاءَ بها إلى هنا بحقِّ السّماء؟»

«أبدًا!» قالت بونغو ، على سبيل الردِّ .

«حَسناً ، سأحرصُ على أن يحصلَ عليها ،» هتَفت سمر .

أطلقَت بونغو نعيبًا خافتًا وعادَت إليّ .

رائعٌ! خطةٌ بسيطةٌ ، نُفِّذت بطريقةٍ جميلةٍ .

ستُعطي سمرُ ستيفن ورقةَ الواجبِ المدرسي . وسيشرعان في إجراءِ حديثٍ عن غرابٍ مجنونٍ في شجرةِ البلُّوطِ الضّخمةِ . سيضحكان . سينغمِسانِ في الحديث . وسيُدركان أنَّ لديهما الكثيرَ ممّا هو مشتركٌ بينهما .

و . . . Voila . الصداقةُ .

كانت خطةً عظيمةً .

باستثناءِ الجزءِ الذي جاءَ بعد ثوانٍ . الجزءُ الذي لَمَحت فيه سمر صديقًا لستيفن يمرُّ بها . فقصدتهُ وطلبَت منه أن يعطيَ ستيفن الورقةَ .

وهكذا قُضِي الأمرُ .

«التدخُّلُ ليس بتلك السُّهولةِ التي ظننتُها ،» اعترفْتُ لبونغو .

«اسمعي ، أنا أنجزتُ مُهمَّتي .»

«كنتِ رائِعة يا بونغو ،» قلتُ . «حسنًا ، ما علَينا إلا أن نحاولَ ثانيةً . إنَّنا لا نملكُ وقتًا طويلاً .»

«حمراء ،» هتفَت بونغو وهي تتنهّد ، «لا تُذكّريني رجاءً .»



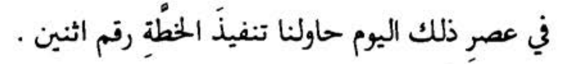







24





في عصرِ ذلك اليوم حاولنا تنفيذَ الخطَّةِ رقم اثنين .

«هذا لَن ينفعَ يا حمراء ،» قالت بونغو وهي تتهادَى ذهابًا وإيابًا على العشبِ .

«يا لكِ من متشائمةٍ!» قُلتُ .

«يا لكِ من متفائلةٍ!» ردّت .

كانت لديَ شُكوكي ولكن سِرًا . خطتُنا الثانيةُ تطلَّبت الاستعانةَ بأحدِ الأطفالِ .

ووقع شجارٌ كبيرٌ بخصوصِ أيّ طفلٍ سيُساعدنا ، لكن عمومًا ،

كانت هناكَ مشاحناتٌ متواصلةٌ منذُ تهديدِ فرانسيسكا بقَطعي. وأحبطَتني رؤيةُ سُكّاني، أولئكَ الذين تأقلَموا معًا جيدًا وبشكلٍ عجيبٍ، ينقلبُ أحدُهم على الآخَرِ بمجرّد تعرُّضِهم لمُشكلة.

نعم مؤكّد، كانَت تلكَ المُشكلةُ عويصةً. لكن، بَدا لي، في حالِ لم أنجح في معالجتها، أنَّ أقلَّ ما يجدرُ بسُكّاني أن يفعلوه هو أن يُحسِنوا التصرّفَ خلالَ آخِرِ أيامِنا معًا.

قذفَت بونغو في الهواءِ عملةً نقديةً تحتفظُ بها ضمنَ مجموعتِها من الكنوزِ، وتوصّلنا إلى مُساعِدنا عندما حطّت العملةُ أرضًا على أحدِ وجهيها: أصغرُ طفلٍ من أطفالِ الأُبوسوم، ومِيضُ الضّوء.

«أريدُ أن أفهمَ هذا مباشرةً،» قالت بونغو. «أَهناكَ خوفٌ من أن وميضَ الضّو...؟»

«صَه... لا تُكملي،» هسهَست عَناكب مَشعرانية. «نحاول ألا نذكرَ هذه الكلمةَ أمامَه.»

«ماذا إذًا تُسمونه في الواقع؟» سألت أغنيس.

«هو يستجيبُ على اسمِ وميض،» وضّحت عَناكب مَشعرانية.

«حَسناً يا وميض،» بدأت بونغو، «أتستوعبُ الدَّورَ جيِّدًا؟

تتظاهَر بأنّك ميتٌ . أنتم يا رِفاق ماهِرون في هذا ، صَح؟»

هزّ وميضُ رأسَه بحماسةٍ . «الأُبوسوم أفضلُ مَن يتظاهَر بالموتِ في العالَم بأسرِه .»

«تتظاهَر بالموتِ إذًا ، يراكَ ستيفن وسمر عِندما يعودان من المدرسةِ . . .»

«نحن نأملُ أن يعودا اليومَ إلى البيت في الوقتِ نفسه تقريبًا ،» قلتُ .

« . . . ويَفقدان صوابَهما ،» تابَعت بونغو ، «يُشاهدان الطِّفل اللطيفَ ميتًا ، ويتناقشان حولَ ما ينبغي القيامُ به . . .»

«أأنتما واثِقتان من أنّ هذا آمِن؟» استفسرَت عَناكب مَشعرانية .

«أنا أشعرُ بشيءٍ من الدُّوارِ من مجرّد التفكيرِ في ذلك .»

«نحن كلّنا سنراقِب . وستيفن وسمر طفلان ذكيان ،» طمأنتُها . «ولن يغيبَ عنهما أنه يجبُ ألّا يمسَّا حيوانًا مريضًا .»

«وبالتالي يذهبان لِيحضرا أهلهما . وقد يحاوِلان الاتّصالَ بمقرٍّ إنقاذِ حيوانات البرّية أو ربّما بطبيبٍ بَيطري ، وبينما هم مَشغولون بالحدثِ ،» تابعَت بونغو ، «يُسارع وميضُ الـضَّـ . . . يُسارع وميض إلى الجري ويختبئ في جُحره . يُعاود ستيفن وسمر الخروجَ ،

وينفجران ضاحكَين بسببِ اِختفاءِ الأُبوسوم الصَّغير ، وربما آنذاك يتشجّع الأهلُ على تبادلِ الحديثِ . . .»

«أنا في الحقيقة أعتقدُ أن ابنتي يو ستقومُ بعملٍ أفضل ،» اعترضَت يو الكبيرة . «إنّها مُمثلةٌ بالفطرةِ . أو يو أو يو أو يو .»

«هذا تقرّرَ رسميًا ،» واجهَتها بونغو بصوتٍ حازم . «أجرينا القُرعة بالعملةِ المعدنية ، أَتذكُرين؟»

«أنا أقترحُ فقط ،» تمتمَت يو الكبيرة .

عند آخر الشارع دقّ جرسُ انتهاءِ الدّوامِ المدرسي . «خُذوا أماكِنكم ، كلّكم!» حثّت بونغو الجميعَ .

«هذا سينجحُ حتمًا ،» قلتُ .

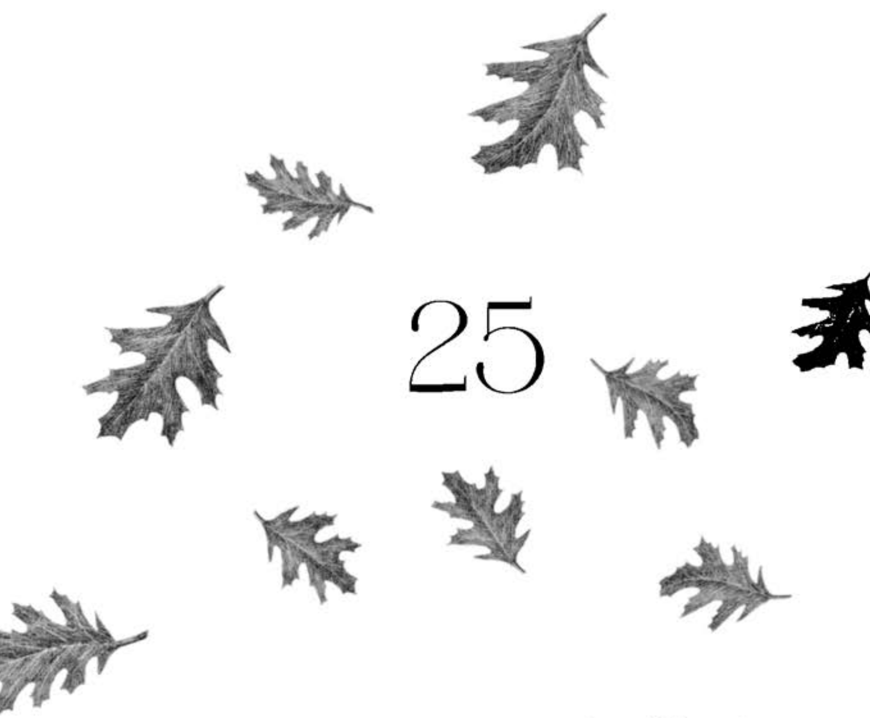
«هذا سيفشلُ حتمًا!» قالت بونغو في اللحظةِ نفسِها .











25

«و . . . استعداد!» همسَت بونغو .

تهادَى وميض الصّغير مُتجهًا إلى وسطِ العشبِ . اِضطجعَ على جانبه وتقوقعَ .

أغمضَ عينَيه . فتحَ فمَه كاشفًا عن أسنانٍ صغيرة جدًّا وحادّة كالإبرِ .

«تمام ،» قالَت بونغو .

«حاوِل أن تُخرِجَ رغوةً من الفمِ يا صغيري ،» صاحَت عَناكب مَشعرانية .

لمحْنا ستيفن يقتربُ من أوّل الشّارعِ ، ولحُسن الحظّ ، كانت سمر على بُعدِ ياردات قليلةٍ خلفَه .

قفزَ وميض . «كيف أُبْلي مامي؟»

«رائعٌ يا طفلي ،» أجابت عَناكب مَشعرانية . «مامي فخورةٌ جدًّا بصغيرِها الأبوسوم .»

«تظاهَر بالموتِ!» نعقَت بونغو .

«أوه صَحيح ،» دمدَم وميض بنبرة استهجانٍ . «يبدو أنني نسيتُ يا عمَّتي بونغو .»

«أنا لستُ عمّتكَ ،» صَدَّتهُ بونغو . «بل أنا لستُ فردًا من أفرادِ فصيلتكَ .»

«لا بأس ، هذا لا يهمّ حقًّا ،» اعترضْتُ موبِّخةً .

«تظاهَر بالموت!» نعقَت بونغو مُجدّدًا .

فأصيبَ وميض بالحازوقة .

«آه يا ربّي ،» تأوّهت عَناكب مَشعرانية . «هذا ما يُصيبه عندما يصبحُ عصبيًا .»

«لا أفهمُ لماذا لا يمكنُ أن أتظاهرَ أنا بالموت؟» استفسَرت بتلةُ الورد .

«هدوء يا صِغار!» أمرَت بونغو الجميعَ . «وميض ، أوقِف

الحازوقة يا فتى!»

«ها هما يأتيان!» همستُ . «ستيفن وسمر!»

أصبحَ صوتُ الحازوقةِ أعلى .

«الآن! يا وميض الضَّوء!» قالت بونغو .

«لا تَخاطبيه بهذا الاسم!» صاحت أمُّه .

تيبّسَ وميضُ الضوء . توقّفَت الحازوقة . تقطّرت الرَّغوة من فمِه . عيناه نصفُ المفتوحتين كانتا زُجاجيتين وضبابيتين .

«الأداء!» همسَت بونغو . «بديعٌ!»

ستيفن هو أوّل مَن رأى وميض . سمر كانت على مقربةٍ منه .

«ماذا يجبُ أن نفعلَ؟» تساءلَ ستيفن .

نجحنا ، فكّرتُ بَيني وبين نفسي . إنَّهما في الواقع يتبادلان الحديثَ .

«لا تلْمسه ،» حذَّرته سمر . «قد يكون مسعورًا . أو لعلَّه يتظاهرُ بالموتِ فقط . قرأتُ أنّ الأُبوسوم يفعلونَ ذلك .»

«سأذهبُ لأحضرَ أمِّي . ربّما تستطيعُ استدعاء شخصٍ ما .»

«هذا يَبدو مناسبًا ،» وافقَته سمر .

لخيبةِ أملي ، تبادلَ ستيفن وسمر الإيماءَ برأسيهما ، وعلى الفورِ دخل كلّ منهما بيتَه .

ومَرّةً أخرى ، انتهَت الخطّةُ عندَ هذا الحدِّ .

ذلك التخطيطُ كلُّه من أجلِ لحظةِ حوارٍ مُقتضب فقَط؟

كيف بالضّبطِ تنشأ الصّداقةُ بين النّاسِ؟ إلى أيِّ مدى يمكنُ أن يكون ذلك عسيرًا؟

لكن ، ذكّرتُ نفسي ، جرى بين ستيفن وسمر حوارٌ ما ، وهذه خطوةٌ أولى جيِّدة ، أم أنها ليسَت كذلك؟

«وميض؟» صاحت بونغو . «وقتُ العودةِ إلى جحركَ يا رفيق . قبلَ أن يعودا ثانيةً .»

بقي وميض متيبِّسًا على شكلِ كُرة أُبوسوم صغيرة .

«وميض؟» ناديتُه .

«وميض؟ يا صَغيري؟» وَلوَلت عَناكب مَشعرانية .

«أوه . . . يا ربِّي!» هتفَت يو الكبيرة . «لا أظنُّ أن طفلكِ يمثّلُ .»

«يا طفلي ، يا صغيري! يا وميضي الغالي!» ندبَت عَناكب مَشعرانية ، وبدأ أشقاءُ وشقيقاتُ وميض يَنوحون .

«كان يجدرُ حقًا أن تُوكلَ المهمَّة لأحدى يوياتي ،» قالت يو الكبيرة .

«وميض! كفَّ عن التظاهرِ بالموت!» نعقَت بونغو ، ثم قفزَت

نحو وميض وبلطفٍ وخزَته بمنقارِها .

«كيفَ واتتكِ الجرأةُ على وخزِ ابني!» زعقَت عَناكب مَشعرانية . «وميض يا صغيري أنا آتيةٌ لنجدتِكَ!»

اندفعَت عَناكب مَشعرانية من جحرها ، تدرّجت نازلةً على جذعي ، وغابت عن الوعي فورًا .

«أوه ، عظيم!» قالت بونغو . «هذا في مُنتهى الرَّوعةِ . الأمُّ كالابن . ماذا الآن أيتها الشَّجرةُ الحكيمةُ؟»

«أنتِ تولّي أمرَ وميض ،» أصدرتُ أوامري . وخبز طازج ويو الكبيرة أيمكنكما أن تُنقذا عَناكب مَشعرانية؟ أن تسحباها إلى جحرِ خبز طازج ، تحتَ الرواقِ؟»

«قالت عَناكب مَشعرانية أن أطفالي مشاغبون ،» اعترضَت يو الكبيرة .

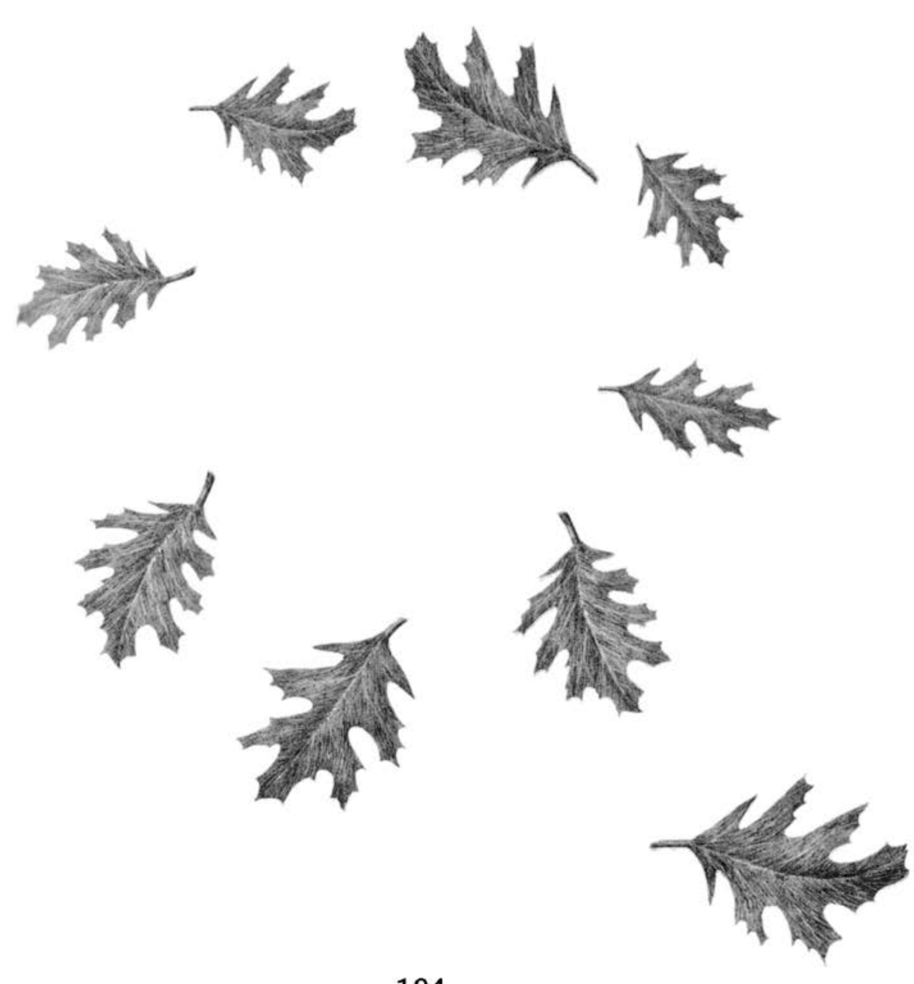
«ويو الكبيرة قالت إن رائحةَ صِغاري نَتنة ،» اعترضَت خبز طازج .

عشتُ ما يزيد عن قرنَين ، وخلالهما كانت الأوقاتُ التي رفعتُ فيها صوتي نادرةً جدًا .

هذه كانت إحدى تلكَ الأوقاتِ .

«الآن!» وجّهتُ الأمرَ ، تمامًا بينما فُتح بابُ بيت ستيفن .

وستُدهشون حتمًا من سرعةِ تصرّفِ حيوانات الرّاكون والظّرابين عندما يُحرّضُها شيءٌ ما .







26



تخلّى ستيفن وأمّه في نهايةِ المَطاف عن مُحاولة العثورِ على الأُبوسوم الصَّغير الغامضِ. راقبَتهما سمر من نافذةِ غرفة جلوسِ بيتِها، إلّا أنّها لم تغامِر بالخروج.

بعد ساعةٍ تقريبًا، أفاقَت عَناكب مَشعرانية ووميضُ الضَّوء، وعادا على سيقانٍ مرتجفةٍ إلى جحرِهما.

وذاكَ ما حدثَ في الخطّةِ الثّانية.

«لا تقلَقي،» قلتُ لبونغو. «المحاولةُ الثالثةُ ستكون كتعويذةِ سحرٍ.»

«ماذا يُفترضُ أن يعني كلامُكِ؟»

«إنّه مجرَّد تعبيرٍ يستخدمه النَّاس .»

«تعويذةُ سحرٍ ،» استهزأت بونغو . «أتعرفين أنّ هذا ما يُطلقه النَّاس على مجموعةٍ من الطُّيورِ الطنانةِ؟»

«لا ، في الحقيقة .»

«الطيورُ الطنَّانةُ! تلك التي ، حسنًا ، لِنواجِه الحقيقة ، هي تقريبًا ذبابٌ مُبالغٌ في التّأنقِ . لكن ، خمّني أي تسميةٍ نحصلُ عليها نحن الغربان؟»

«ماذا؟»

«قتلَة! غربان قتلَةٌ! أتُصدِّقين؟ مجموعةُ أشجارٍ يطلقون عليها اسمَ بستانٍ . مجموعة حيوانات الرّاكون؟ يُسمّونها متعة للنظرِ .» خفقَت بونغو بجناحيها . «أمّا الغربان؟ فنحن قتلةٌ .»

«هَلْ انتهيتِ؟» سألتُها .

«سامِحيني . أنا قلقةٌ عليكِ . وأصبحُ حادَّة المزاجِ عندما أقلَق .» انتزعَت بونغو حفنةً من العشب اليانعِ وقذفَتها جانبًا .

«عِنْدي خطّةٌ واحدةٌ أخيرةٌ لأجعلَ ستيفن وسمر يُدردشان معًا ،» قلتُ .

«ماذا عَنْ خطّةٍ تنقذكِ من التَّحوّل إلى طاولةِ نزهات؟»

«ليس في وسعي السَّيطرةُ على كلِّ شيءٍ في الحياة يا بونغو ،»

قلتُ بلطف . «ولو تسنّى لي هذا ، أيُّ متعةٍ ستكون في الحياة؟ لكن هذا الشيءُ الصّغير . أمنيةُ سمر تلك . يمكنني تحقيقُها .» تردّدتُ قليلاً ثم أضفتُ ، «على الأقلّ هذا ما أعتقدُه .»

«أنا لا أَفْهمُ لِماذا يهمُّك أمرها كثيرًا .»

«إنّها تُذكّرني ببنتٍ صغيرةٍ عرفتُها منذ عهدٍ بعيدٍ .»

«أنتِ تتدخّلين في شؤون الآخرين ،» قالت بونغو بصوتٍ واهنٍ .

«إلّا أنّني مع ذلك أحبُّكِ .»

نظرَت إليَ بما يشبه الابتسام عند الغربان - منقارٌ منفرجٌ ورأسٌ مائلٌ وعينان لامِعتان - «إذًا ما الخطّةُ رقم ثلاثة؟»











27



حالما أقبلَ الليلُ ، أرسلتُ بونغو في مهمّتها التالية .

«ما عليكِ إلّا أن تفكّي عُقدةَ أمنية سمر ،» أعطيتُها تَعليماتي .

«أوه!» هتفَت بونغو ، «أهذا كلّ شيء؟»

طارَت بونغو إلى الغصنِ المُنخفض حيث ربطَت سمر قطعة القماش الورديةِ المنقّطةِ . وعالجَتها بمنقارها عدّة مرّات . «القولُ أسهلُ من الفِعل ،» أدلَت لي بِدلوِها .

«أنتِ من الغربان . استخدمي أداةً ما .»

الغربان مشهورةٌ بصنعِ الأدوات واستخدامِها . إنّها على الأرجح أذكى أنواع الطّيور في الأنحاءِ .

«هممم ،» همهمَت بونغو وهي تنقرُ وتتفكّر . «عندي مشبكُ ورقٍ في مجموعتي . سأحاولُ استخدامَه .»

«هذا لن ينفعَ مطلقًا ،» توقّعت أغنيس من عشِّها .

أعتقدُ أن طيورَ البومِ تشعرُ سِرًّا بالغيرةِ من الغربان .

واحداً بعد الآخر ، برزَت الرؤوسُ من تجاويفي ، وكذلك من جُحر الظَّرابين تحت الرواقِ ، لمراقبةِ بونغو وهي تعمَل .

«مامي ، ماذا تفعلُ بونغو؟» استفسرت إحدى الـ يويات .

«هذا يُسمّى الاستعانةَ بالأدوات ،» أجابت يو الكبيرة . «لا شيء مهمّ .»

«يا سيّدات ، إذا لم يكن في وسعِكنَّ قولُ شيءٍ مشجعٍ ،» قلتُ ، «يُستحسنُ أن تسكتنَ ، رجاءً .»

عادت بونغو إلى قُصاصة القماشِ ومعها قطعةٌ صغيرةٌ من معدنٍ ملتوٍ . «مشبكٌ ورقيٌّ مُعدّل ،» شرحَت . «عثرتُ عليه في ملعبِ المدرسة .»

بجهدٍ عظيم نجحَت في تمريرِ نهايةِ المشبكِ المُستقيمة في العُقدة . لكن ، بقَدْر ما حاولت لم تنجح في حلحَلتها .

«كدتُ . . . أُفلح ،» غمغمَت بونغو من بين منقارها المُطبق .

«لماذا تفعلُ بونغو ذلك؟» سأل هارولد أغنيس .

«لا تفسيرَ هناك لما تفعلُه الغربان ،» ردَّت أغنيس .

«لأنَّني طلبتُ منها ،» قلتُ . «لأنَّ هذا مهمٌّ بالنسبة لي .»

تركَت بونغو المشبكَ يسقط على الأرض وهي تُطلق زمجرةَ إحباطٍ . «لا فائدةَ يا حمراء .» انبرَت تقول .

«ربّما حان الوقت للتّخلي عن هذه الفكرة .» أعلنتُ وأنا أتنهَّد .

«لا يبدو أنَّه مُقدَّر لي أن أساعدَ . المقدّر لي أن أبقى جاثمةً هنا ؛ جاثمةً فقط .»

داعبَت ريحٌ لطيفة أوراقي . ولا أحدَ تكلّم .

«اسمعي ، انتظري دقيقةً ،» هتفَت يو الكبيرة . «ربّما يُمكنني أن أفعلَ شيئًا .»

«أنتِ ثقيلةٌ جدًّا على ذلك الغُصن .» أشارَت أغنيس .

«فَلتحاول مع ذلك ،» قلتُ .

بحذرٍ ، سلكَت يو الكبيرة طريقَها نحو الطَّرف الذي عُلِّقَت عليه أمنيةُ سمر .

كانت في الواقع ثقيلةً فعلاً ، وغُصني انحنى تحت وطأةِ ثقلِها ، لكنَّني صمدتُ . وانهمَكَت تعبثُ بالعقدةِ مستخدمةً كفَّيها الأماميتين . وقبل أن يمرّ وقتٌ طويل ، حرّرَت الشريط .

«ها ، ها!» صاحت وهي تقبضُ على قُصاصة القماش بكفّها اليُمنى .

«حَسناً ، أنا أنجزتُ الجزءَ الأصعب ،» تمتمَت بونغو بوجهٍ عابسٍ .

«كان جُهدًا مشتركًا ،» قلتُ . «فريقُ عمل . وهذا شيءٌ أُقدّره كثيرًا . أقدّر عملكما أنتما الاثنتَين .»

«لديكِ الأمنيةُ الآن يا حمراء ،» قالت أغنيس . «فما التّالي؟»

«ننتظرُ إلى أن تأتي سمر لزيارتِنا ،» قلتُ . «وبعدئذٍ تستخدم بونغو سِحرها .»



28

غسَلنا القمر كلّنا بشعاعٍ أزرقَ باردٍ بينما لَبثنا ننتظر زيارةَ سمر الليلية.

خَرجتْ بمنامتها وخُفَيها. جلسَت على بطانيتها واستكانَت بصبرٍ بينما تدافع الأطفالُ لِرؤيتها. كانت تضعُ حول عنقها الحليةَ المُكوّنة من شريطٍ ومفتاح. الحليةُ التي أعطتها بونغو لها.

«أينَ صديقي الغراب؟» همسَت في حين راح صِغار الـ يو يتشقلبون أمامَها. رفعَت رأسها تنظر إلى أحدِ فروعي. وكم أسعدني أنني طلبتُ من بونغو أن تختبئ على سطحِ بيت ستيفن.

وفي الوقت المحدَّد تمامًا، طارت بونغو إلى نافذةِ غرفة نوم

ستيفن . استقرَّت على عتبةِ النافذة ، وقُصاصة أمنية سمر تتدلّى من منقارِها .

برَويةٍ نقرَت على نافذةِ ستيفن .

لم يحدث شيء .

كنتُ قد طلبتُ من بونغو أن تلتزمَ الهدوء قدر المُستطاع . لم نشأ أن تلاحظَ سمر ما نحن بصددِ القيام به .

تك ، تك ، تك . بطريقةٍ أعلى هذه المرّة .

إلا أن شيئًا لم يحدث أيضًا .

كان ستيفن ، على ما بدا ، مستغرقًا في النوم .

نظرَت بونغو إليَ . قالت عيناها «ماذا الآن؟»

ثم حاولَت مجدّدًا . تك ، تك ، تك .

تنبّهَت سمر . «ما كانَ ذلك؟» تساءلَت .

لحسنِ الحظِّ ، صَرفَ هارولد انتباهها بمحاولةِ الطَّيران نحو ذراعها . كان ذلك أقرب إلى قفزةٍ خرقاءَ منه إلى طيرانٍ فعلي . وبالتالي ضحكَت سمر .

تصرّفٌ جيّد يا هارولد الصغير ، فكّرتُ بيني وبين نفسي .

أسقطَت بونغو أمنيةَ سمر على عتبةِ النافذة ونقرت : تك ، تك ، تك .

لا شيءَ .

خَطتْ ذهابًا وإيابًا أمام النافذةِ ، ثمّ جمدتْ .

وومضَت عيناها في ضوء القمر .

دَنَت بونغو من الزُّجاج وأدّت أفضل ما تُتقنه من صوت صفارة إنذارِ سيارةِ الإطفاء .

ولحظة فُتِحت نافذة ستيفن ، كانت بونغو قد عادت واستقرَّت على السّطح ، تراقبُ ثمارَ جهودها .

دقَّق ستيفن في الأجواء . فركَ عينيه . لاحظَ قُصاصة القماش على عتبة نافذته . رفعَها بوجهٍ مُتجهّمٍ ، مستعينًا بضوء القمر ليقرأ الكلماتِ المكتوبةَ على النَّسيج .

بعدئذٍ رنا تُجاه العشب .

وهناك كانت سمر ، تنظرُ إليه وهي مُحاطةٌ بمجموعةِ غريبةٍ من صِغار الحيوانات والطُّيورِ .

«أنت رائعٌ!» قالت بونغو .







29

عندما فتحَ ستيفن بابَ البيت بهدوءٍ ، كان يلبسُ منامةً حمراء وسُترة رماديةً سميكة . شعرُه البُنّي الفاتحُ منفوشٌ ، وعيناه زائغتان . والمصباحُ الكاشِف الذي حملَه كان يقطعُ الظَّلام .

التفتَ الصِّغار نحوه وتَسمَّروا في أرضهم . توهَّجت عيونهم مثل أقمارٍ صغيرة .

أطلقَ وميض صرخةً حادّةً من شدَّة الخوف .

أطفأ ستيفن مصباحَه ، وبدا أنَّ وميض هدأ قليلاً ، مع أنه بكلِّ تأكيد أُصيبَ بالحازوقة .

«مرحبًا ،» همسَ ستيفن .

«أهلًا ،» ردّت سمر همسًا .

مدَّت بطانيتها ، وانضمَّ ستيفن إليها . أمّا الأطفالُ فلبِثوا يتابعون ما يجري باهتمام .

«لماذا يأتونَ إليك؟» سألها ستيفن .

«لا أدري .»

«هذا أشبه بالسِّحر!»

«لا .» هزَّت سمر رأسَها . «أنا . . . أنا فقط ألتزمُ الهدوء ، وهم يحبُّون ذلك .»

طارت بونغو وحطّت على كتفِ سمر . «مرحبًا ،» حيَّت ستيفن مُقلّدةً صوتَ سمر .

«ياه!» هتفَ ستيفن . «مُدهش .»

«أمس سَمعتُه يُقلّدُ صوتَ جرس الباب ،» قالت سمر فندَّت عن ستيفن ابتسامةٌ واسعة .

«أعطاني هذا المفتاحَ ،» أردفَت سمر وهي تُري ستيفن المفتاحَ . «لا أعرفُ لأيِّ شيءٍ هو . دفترُ مذكَّرات أو ربّما صندوق مُجوهرات .»

«أَو أصغرُ بابٍ في الدُّنيا ،» قال ستيفن ممازحًا .

لفترةٍ، غرق الجميع في الصَّمت، بما في ذلك صِغارُ الرّاكون الذين هم أيضًا التزموا الهدوءَ.

وأخيرًا مدّ ستيفن يدَه، كاشفًا عن أمنيةِ سمر. «وجدتُ هذه،» قالَ.

حتّى في ضوءِ القمر، كان تضرُّجُ سمر بحُمرةِ الخجل مَرئيًا، وسارعَت إلى الالتفاتِ بعيدًا.

«مؤسفةٌ تلك الكلمةُ،» قال ستيفن بصوتٍ رقيق. «أعني الكلمةَ المنحوتة. نحن لم... لسنا نحن من فعلَ ذلك.»

أومأت سمر برأسِها.

«أبي وأمّي ليسا شخصَين سيئَين. هُما فقط... يَخشيان ما لا يعرفانه،» تابعَ ستيفن وهو يهزُّ كتفيه.

«وكذلك أهلي،» قالت سمر. «سمعتُ أبي يأتي على ذكر الانتقال. هذا إذا عثرنا على مكان آمِن لنستقرَّ فيه،» أردَفت ووجهُها يُسفرُ عن ابتسامةٌ حزينةٌ. «إذا كان هناك مِثلُ ذلك المكان.»

«هذا مؤسفٌ،» كرّر ستيفن مرّةً أخرى.

بعدما بدا للصغارِ أنّه يمكن الوثوق بستيفن، راحوا يتعاركون ويمرحون. بحثَ هارولد وأصغرُ فردٍ من عائلة الـ يو عن البقِّ. وبتلةُ

الورد وشقيقها فُشار ساخِن بالزبدة مارسا لعبةَ شدّ الحبل بنصل حشيش طويلٍ .

«سأفتقدُ هذه المخلوقاتِ الصَّغيرة ،» غمغمَت سمر .

«آملُ ألّا تنتقلوا ،» علّق ستيفن .

شعَّ ضوءٌ في بيت ستيفن . «يجبُ أن أذهب ،» قال . «إذا رآني أبي وأمّي . . . حسنًا ، يجب أن أذهبَ .»

«تُصبح على خيرٍ ،» قالت سمر بصوتٍ هامِس .

أوه ، يا لتلكَ الأشياءِ التي أردتُ قولَها لهذين الاثنَين! أردتُ أن أخبرَهما أن لا داعي لأن تكون الصَّداقةُ مطلبًا عسيرًا . أننا أحيانًا نسمحُ للعالَم أن يجعلَها صعبةَ المَنال .

أردتُ أن أطلبَ منهما أن لا يتوقّفا عن الكلام .

أردتُ إحداثَ فرقٍ ، مجرّد فرقٍ طفيفٍ ، قبل أن أغادرَ هذا العالم البديعَ .

وهكذا فعلتُ ما فعلتُه .

كسرتُ القاعدة .

«ابقَيا ،» قلتُ لهما .



30

فغرَت المخلوقاتُ أفواهَها ذهولًا . حتّى أصغَر الأطفال كانوا على درايةٍ بقانونِ حَظر مُخاطبة البشرِ .

اِندفعَت بونغو إلى أعلى فروعي . «حمراء!» نعقَت بهمسٍ مخنوقٍ . «لا يُمكنكِ . . .»

«أوه ، بلَى ، يُمكنني ،» قلتُ . «ما الذي قد أخسرُه؟»

«لكن . . .»

«كما كنتُ أقول ،» حوّلت انتباهي إلى ستيفن وسمر .

كانا يحدّقان بي بفمَين فاغِرين وعينين مُتّسعتين ، ومُتيبِّسين كما تيبّسَ وميض منذُ فترة وجيزةٍ .

«نحن نَحْلمُ ،» غمغَم ستيفن . «أليسَ كذلك؟»

«في الوقت نفسِه؟» سألته سمر . «أهذا مُمكن؟»

«اقرصيني ،» هتفَ ستيفن .

امتثلَت سمر لطلبه .

«شعرتُ بذلك من غير شكٍّ ،» أعلن ستيفن .

«لعلّها قرصةٌ في الحلم ،» اقترحَت سمر .

«من بعدِ إذنِكما ،» قاطعتُهما . «أحملُ في جنباتي حكمةً تعادلُ مئتين وستّ عشرة دورة حياة . ولا أملكُ متّسعًا من الوقتِ الآن .»

مدّ ستيفن يدَه باحثًا عن يدِ سمر .

«إذا كان حلمًا ،» قال ، «هو على الأقلّ حلمٌ لذيذٌ .»

وهكذا بدأتُ أحكي .









31

أنا لم أكُن دائمًا شجرةَ أمنياتٍ .

حَدثَ ذلك سنة 1848 ، قبل أن تُحيطَني بزمنٍ طويل السّيارات والباطون ، عندما كان عمري لا يتجاوزُ العهود القليلة وما زلتُ يافعةً ، وفقَ معايير أشجارِ البلُّوطِ الحمراء . آنذاك كففتُ عن أن أكون مجرّد شتلةٍ ضامِرة ، وأصبحتُ صلبةً وقويةً ، إلا أنني لم أتغلغل بعدُ في الأرض كحالي الآن .

ذاكَ كانَ الوقت ، مثل عديدٍ من الأوقاتِ الأخرى ، عندما أبحرَ النَّاس في مراكبَ ازدحمت بهم ليستقرّوا هنا . ومُعظمهم انتهوا في

حَيي هذا ، كما بدا أنّهم يفعلون دائمًا . آنذاك كان البيتان الأزرق والأخضر بُنيَّين ، واكتظّا إلى درجة الفيضان بالوافدين الجُدد .

أحيانًا لقيَ الوافدون الجُدد الترحيبَ . وأحيانًا لم يُرحَّب بهم . مع ذلك لم يمتنعوا عن القدومِ ، يحدوهم الأملُ والرّجاء ، كدأبِ النَّاس دائمًا .

أحدُ سُكّانِنا الجدُدِ كَانَ صبيّةً أيرلندية تُدعى مايف . سافرَت عبر الأطلسي مع أخيها البالغِ من العُمر تسع عشرة سنة ، والذي مات من الزُّحارِ خلال السَّفر . أمّا أُمُّهما فتوفيَت بعد فترةٍ قصيرة من ولادةِ مايف ، والأبُ قضى نحبَه عندما كان الطِّفلان في التَّاسعةِ والثَّانية عشرة من العمرِ .

كانت مايف صلبةَ العودِ وعاديةَ الملامح ، لكن كلَّما ابتسمَت بدا ذلك كما لو أنّ أشعةَ الشّمس تتلصَّص من بين الغيوم . تميّزَت بضحكةٍ عميقةٍ ، وشعرُها قانيَ الحُمرة كحُمرةِ أروَع أثوابي الخريفية وأجوَدِها .

في السادسةِ عشر ، وحيدةً وفقيرةً ، تقاسمت مايف غرفةً مع خمسةِ مهاجرين آخرين . اشتغلَت ليلاً ونهارًا ، تنظِّف وتطبخُ وتفعل كلّ ما في استطاعتِها أن تفعلَه لتبقى حيّةً .

ثم سرعان ما اكتشفَت مايف أنّها تتمتعُ بموهبةِ الاعتناءِ

بالمرضى . لم تكن صاحبةَ معرفةٍ خاصّة . ولا تملكُ وصفاتِ علاج سِرّية ، لكنها كانت رحيمةً وصبورةً ، وعرفت كيف تُسكّن أعراض الحُمّى بقطعة قماشٍ باردة مثل أي شخصٍ آخر . ما لم تعرِفه هو أنها كانت راغبةً في التّعلُّم .

مع مرور الوقت ، انتشر الكلام عن قُدرات مايف . وأخذ الناس يُحضرون لها خنازيرَهم الصّغيرةَ المريضة وخيولَهم المُتوعّكة ، أولادَهم المُصابون بالكُحّة وصغارَهم النّكدين . ودائمًا بَيَّنت لهم أنّها ليست متأكّدةً من قُدرتها على المُساعدة . لكن ، بما أنّ أهلَ الحَي كانوا أشدَّ فقرًا من أن يستنجدوا بالطبيب قصدوا مايف .

ومنذُ أن اعتقدَ النّاس أنّها يمكن أن تساعدَهم على التّماثُلِ للشفاء ، حاولت مايف ألّا تُخيِّبَ آمالهم . وعندما تتكلّلُ مساعيها بالنجاح ، أو حتّى عندما تفشل ، كان المرضى وعائلاتهم يتركون لها إكرامياتٍ رمزيةٍ مُتواضعة : تِمثالُ عصفورٍ منحوت ، دبوسُ شعرٍ ، نصفُ رغيفِ خبز . ومرّةً ترك لها شخصٌ ما مُفكّرةً ذات غلافٍ جلدي لها مفتاحٌ فضِي صغير جدًا يفتحُ قفلها .

عندما تخرجُ مايف لتهتمّ بمريضٍ ، اعتاد النّاس أن يضعوا هداياهم الرّمزية في تجويفي الأوطأ . كان حينها ما زالَ جرحًا حديثَ العهد ، مرّ عليه فصلان فقط من التّماثُل للشّفاء . لكن

لأنَّه يواجِه البيتَ الذي تسكنُه مايف وليس الشَّارع ، اعتُبِر مكانًا آمنا لإيداع هدايا العِرفان بالجميلِ فيه .

عند ذاك أدركتُ أنَّ التجاويفَ يمكنُ أن تكونَ مفيدةً للبشرِ ، وليسَ فقط للطُّيور والحيوانات .

يا لِقلّة مَعرفتي بأهمّيتها آنذاك .



32

مرّت السنواتُ وأصبحَت مايف مقترنةً بأهلِ الحيِّ كاقتراني بهم . ومَهما اختلفَت أصولُ الوافدين الجُدد الذين قَدِموا من أراضٍ أخرى ، وحملوا معَهم مُوسيقاهم وتنويعات طعامِهم ولُغاتهم إلى بُقعتنا الصّغيرةِ من العالَم ، أَولَتهم مايف جُلَّ رعايتها .

كبُرتُ وأصبحتُ أصلبَ عودًا ، فروعي الأقدَم غدَت أقلَّ مرونة ، وطالَ امتدادُ ظلّي . التحقَ بي مزيد من الأشجار والشُّجيرات ، والشّمس كَفَتنا كلّنا ، ولم نفتقر قطّ للماء .

آنذاك كنتُ قد استضفتُ العديدَ من العوائِل . فِئران وسناجِب

بصفةٍ خاصَّة . وكان مُستشاري المُقرّب سنجابًا رماديًا صغيرًا اسمه سكويبلز . (كلّ أسماءِ السناجب تبدأ بأحرف س ك و) .

كان سكويبلز مولعًا بمايف كثيرًا ، مايف التي أطعمَت سكويبلز في أغلبِ الأحيان بقايا المائِدة .

قلِقتُ أنا وسكويبلز سِرًا على مايف . على مَدى تلك الأيام ، رأت مايف طالبَ قُربٍ منها أو اثنين ، إنّما لم تُسفر تلك المغازلاتُ عن شيءٍ ذي بالٍ . حَظيَت بوفرةٍ من الأصدقاء وعملٍ تنجزه من الفجر إلى الغسق . مع ذلك ، بدَت وحيدةً . أحيانًا قد تخرجُ مايف وتجلس على درَجِ الشُّرفة ، تتأمّل العوائِل السّعيدة تتمشّى أمامها ، وعندئذ تترقرقُ عيناها بالدُّموع . في الليل ، تحدّق خارج نافذةٍ مُشرعةٍ في الطابق العُلوي ، وتطفو تنهُّداتها نحونا على أجنحةِ النَّسيم ، كئيبةً كعويلِ حمامة تنوحُ .

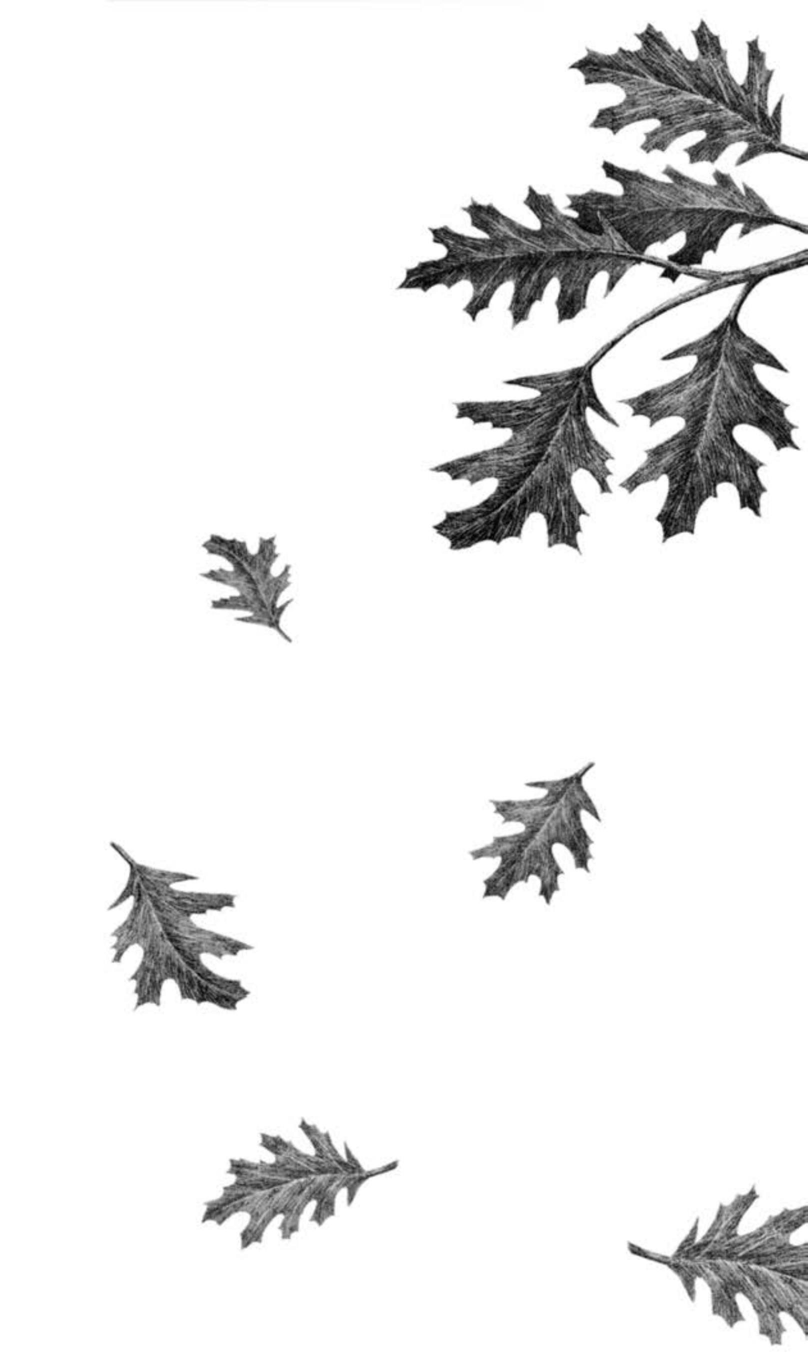
في أغلبِ الأوقاتِ تجلس مايف عندَ قاعِدة جذعي وتكتب في مُفكّرتِها . وبين حينٍ وآخر تقرأ المقاطعَ بصوتٍ عالٍ . تحدَّثت عن الرّيف الأيرلندي الذي بدأ يتحوَّل في ذاكِرتها إلى ضبابٍ . تحدَّثت عن عائلتها التي فقدَت . تحدّثت عن آمالِها السِّرية ومخاوِفها وتوقِها . كانت تمتلكُ حبًا تودُّ أن تمنحَه ، لكن لا أحدَ هناك لتمنحهُ له .

عَشقَت مايف أوقاتَ الصَّباحِ الباكِرة ، والعالَم يغتسلُ بالسّديم ، والشَّمس ما زالت مجرّد وعدٍ بالظُّهور . اعتادت أن تتكئ على جِذعي بعينين مغمضتين ، وتدندنُ لحنًا من طفولتها .

في أحدِ الأيّام ، أوّلُ يومٍ من شهر أيار ، جاءتني مايف فجرًا ، ولِدَهشتي ، مدَّت يدَها إلى غصني الأوطأ وبلطفٍ علّقت رقعةَ قماشٍ من نسيج أزرقَ مقلّم وربطتها بعنايةٍ .

«أتمنّى ،» هَمَسَتْ ، «أنْ أحظى بأحدٍ أُحبُّه من صميم قلبي .»

تلك كَانتْ أمنيتي الأولى ، وفاتحةَ أمنياتٍ أكثرَ من أَن تُحصى .



33



وبينما مرّت الأسابيع ، أطلقَت قطعةُ النسيجِ المُعلّقة على غُصني تعليقات هائلة .

بعضُ النّاس في حيِّنا ، أولئك الذين من أيرلندا ، كانوا يهزّون رؤوسهم تفهّمًا ويبتسمون . ولهم ، تبادرُ مايف إلى القول بصوتِها الشّجي : «تلك شجرتي الخاصّة بِرُقع الأماني . إنها ليست شجرة زعرور ، بَيْد أنّها ستنوب عنها بكفاءةٍ .»

النّاس الذين قَدِموا إلى هنا من بقاعٍ أخرى - وهم كُثرٌ - كانوا يعبسون عندما يرَون الخرقة ، أو حتى يمدّون أيديهم لانتزاعها . إلا أن مايف اعتادت أن تحذرَهم : «إيّاكم ولمس أمنيتي الآن .» ثم

بصبرٍ ، مُجدّدًا ومُجدّدًا تفسّر لهم كيف أنَّهم في وطنِها يعتبرون تعليقَ أمنياتهم على شجرةٍ تقليدًا أصيلاً .

أحيانًا ، قد يسأل النَّاسُ مايف عن فَحوى أمنيتها . فتخبرهم الحقيقةَ وهي تتنهّدُ وتبتسم ابتسامةً كئيبةً : «لا شيءَ خارِق . لا أريدُ سوى أن أحظى بأحدٍ أحبُّه من صميمِ قلبي . لا شيءَ كثير على الإطلاق .»

أحيانًا يضحكُ النّاس . أحيانًا يُدوِّرون عيونهم . «أمنيةٌ على خرقةٍ لن تجلبَ لكِ الحبَّ يا غالية ،» قد يقولون .

لكن عادةً ، منح النّاس مايف ابتسامةً رحيمةً ، وضغطةً على الذّراع ، وإيماءةَ تفهّم .

ثمَّ ، هم أيضًا يسألون إن كان بإمكانهم تَعليق أُمنياتِهم الخاصَّة .





34

مرّت سنةٌ أخرى ، وبينما بدأ شهر أيار يقتربُ ، اكتشفتُ أنّني بتُّ أحملُ مزيدًا من خرق القماش تفوق في عددها أوراقي المُتبرعمة .

حاول سكويبلز سرقةَ بعض القُصاصات ليفرشَ جحرَه ؛ بيتَه المصنوع من الأوراقِ والأغصانِ الصَّغيرة في الأعلى على أحد فروعي المتشعِّبة . فبيَّنتُ له أن عليه الاكتفاءَ بالعشبِ وإبر الصنوبر إلى أن يمرّ أوّلُ يومٍ من شهر أيار . فالأماني ، طبقًا لمايف ، لا يمكن أن تُلمس إلا بعد مرور ذلك اليومِ . حينئذٍ ، يمكن أن ينزعَ النّاسُ أو السّناجبُ المِقدامة الخِرق التي لم تحملها الرِّيح معها ، أو لم يُسقِطها المطر على الأرض .

لدي شكٌّ بأنَّها اختلَقت هذا القانون لصالحي ، ليتاحَ لي النُّمو بلا قيودٍ ، من دون أن أتحمَّلَ وزن الخِرق الرَّطبة التي تُثقِلُ كاهلي .

قبل فجر الأوَّل من شهر أيار تمامًا ، تقدَّمت منّي امرأةٌ شابّةٌ . كانت ذات شعرٍ أسودَ متموّجٍ ، وتلبس معطفًا رماديًا رثًّا . وبين ذراعيها تحملُ حزمةً ملفوفةً .

«بسست ،» هَمسَ لي سكويبلز . «ها هِي أمنيةٌ أخرى تأتي يا حمراءُ .»

لكنَّ سكويبلز لم يكن مصيبًا . لم تكُن هناك أيُّ أمنيةٍ .

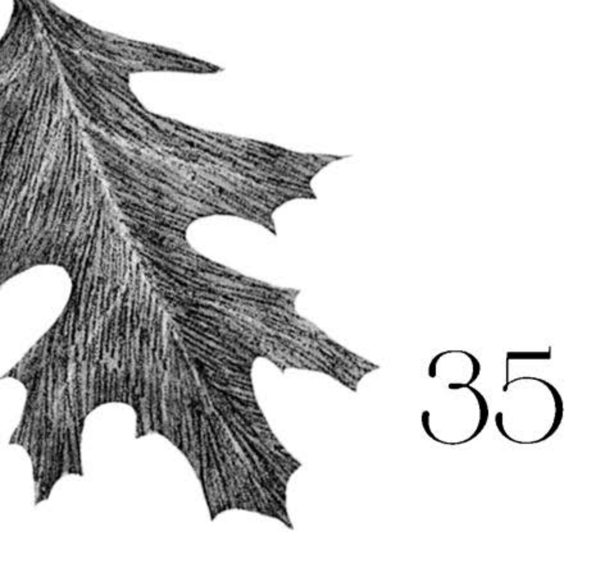
بسرعةٍ بالغةٍ ، وبحرصٍ عظيمٍ وضعَت الشابّةُ الحزمةَ في تجويفي .

تراءى لي أنّ ما وضعَته هو تعبيرٌ عن الشُّكر لمايف . رغيفُ خبزٍ ربّما . لا ريبَ في أنَّ الشابَّة كانت إحدى مريضاتِها .

ثم سارعَت إلى الاختفاءِ كما جاءت .

إنّها مثلُ طائرٍ طنّان ، فكّرتُ : هي هنا ثمَّ هي ليسَت هنا .

مثل هبّةِ ريحٍ عابرةٍ .



35

بعدَ دقائقَ قليلةٍ فقط ، فتحَت مايف بابَ البيت البُنّي الصَّغير . ابتسمَت لي ، وابتسمَت للخرقِ المُرفرفة مع نسيمِ الصَّباح الباكر .

فجأةً علا صوتُ بكاء .

بل تصاعَد صوتٌ أقرَب إلى العويلِ .

والصَّوتُ ينبعثُ . . . ينبعثُ منّي .

ما كان سقسقةَ فرخِ صَعْو وديعةً . ولا الصَّريرَ الخجولَ لفأرٍ صغيرٍ . لا . . . ذاكَ كان صراخَ امتعاضٍ من سوءِ المُعاملة .

كَأنَّ بكاءَ طفلٍ رضيعٍ .



36

كانَت هناك ورقةُ ملاحظاتٍ معلّقةٌ ببطانيةِ الرَّضيع . بتردُّد ، حاولت مايف قراءتها بصوتٍ عالٍ . «لُغة إيطالية!» غمغَمت .

لم تفهم معناها إلا لاحقًا ، عندما استشارَت إحدى مريضاتِها :

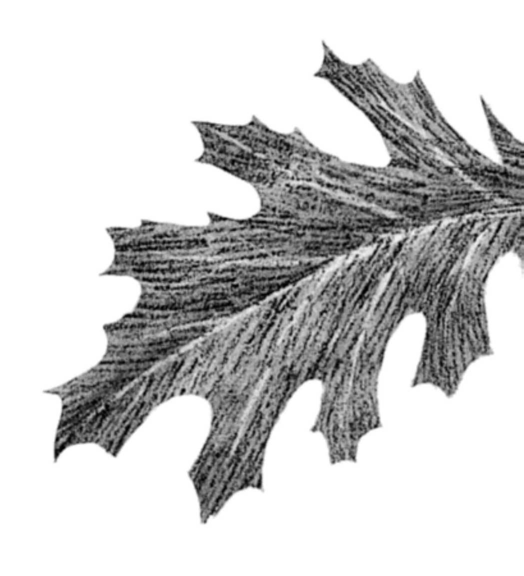
«رجاءً امنحيها الرِّعاية التي لا أستطيعُ مَنحها لها .
أَتمنّى لكما معًا حياةً يغمرُها الحبُّ .»

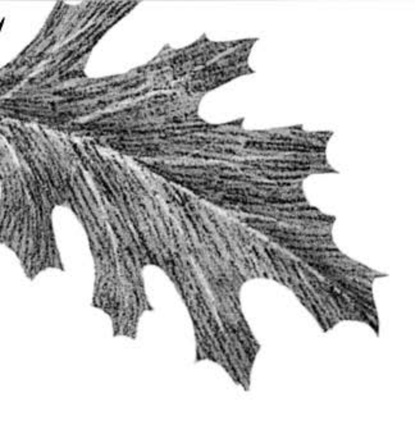
كان شعرُ الرَّضيعةِ أسود ، وشعرُ مايف أحمر .
كانت عَينا الرَّضيعةِ سوداوان ، وعَينا مايف زرقاوان .

أصلُ الرَّضيعةِ إيطالي ، وأصلُ مايف أيرلندي .

مع ذلك بدا أنهما خُلقتا لتكونا معًا .

أطلقَت مايف على الرَّضيعة اسمَ آمادورا ، الذي يعني بالإيطالية «هدية الحبِّ» .





37

كثيرون في الحَيّ لم يؤيدوا فكرةَ أن تُربّي امرأةٌ أيرلنديةٌ عَزباء رضيعةً إيطاليةً منبوذةً . ثرثرَ النَّاس وفقَ أهوائِهم ، واستنكروا كما يَحلو لهم .

بل حتّى عبَّر بعضُهم عن غضبِه ، وقالوا أشياءً مُوجعةً .

أخبروا مايف أنَّ آمادورا لا تنتمي لهذا المكان .

أخبروا مايف أنَّ الرَّضيعةَ يجبُ أن ترحلَ .

اكتفَت مايف بالابتسامِ ، ضمَّت آمادورا بمزيدٍ من القوةِ ، وانتظرَت وأمِلت .

في الليالي المُظلمةِ حيث يندرُ الأمل ، كانت تغني لحنًا أيرلنديًا قديمًا ، تخالطه أغنيةٌ إيطاليةٌ أحدَث منه تعلَّمَتْها من جارةٍ لها . كان النغمُ حُلوًا ، أمّا الكلماتُ فسخيفةً . بَيْد أنّ التّأثير جاءَ نفسَه دائمًا : ابتسامةٌ من آما الصّغيرة .

كما هو متوقّعٌ ، كلّما أطالت مايف الانتظارَ ، غدا النّاس ألطفَ . وقبل أن يمرّ وقتٌ طويلٌ ، أصبحَت آما ، كما كانت تُدعى ، جزءًا من حديقتنا بتنوّعِها الفوضوي .

عندما بلغَت آما من العمرِ ما يُؤهِّلها لأن تطعمَ سكويبلز وعائلته ، فعلَت ذلك . وعندما أصبحت قويةً بما يكفي لتتسلّقني ، فعلَت ذلك . وعندما صارت جاهزةً لأن تطلبَ أمنياتٍ تخصُّها ، فعلَت ذلك .

كبرَت آما لتصبحَ شابّةً مستقيمةً وصادقةً ورحيمةً كأُمِّها ، وأنجبَت أطفالاً من صلبِها ، ثم صار لها أحفادٌ ، وأبناءُ أحفادٍ . وفي نهايةِ المطاف اشترَت آما وزوجُها البيتَ البُنّي الصّغير ، والبيتَ الذي يجاورِه ، وطَليا أحدَهما باللونِ الأزرق والآخَر باللون الأخضر . وبعد سنواتٍ ، اشتريا بيتًا في الطّرف المقابلِ من الشارع وبادرا إلى تأجيرِ البيتَّين الأزرق والأخضر لعائلاتٍ أخرى .

نمَت عائلةُ مايف وازدهرت ، تجادَلت وأحبّت وضحكَت .

والضَّحكُ ، دائمًا وأبدًا أبقى تلك العائلةَ في حالةِ استمرارٍ .

وعندما رُزِقَ حفيدُ آما ببنتٍ ، اختار لها اسمًا إيطاليًا مميَّزًا ، مع اسمٍ أوسَط أيرلندي جميلٍ : فرانسيسكا مايف .



38

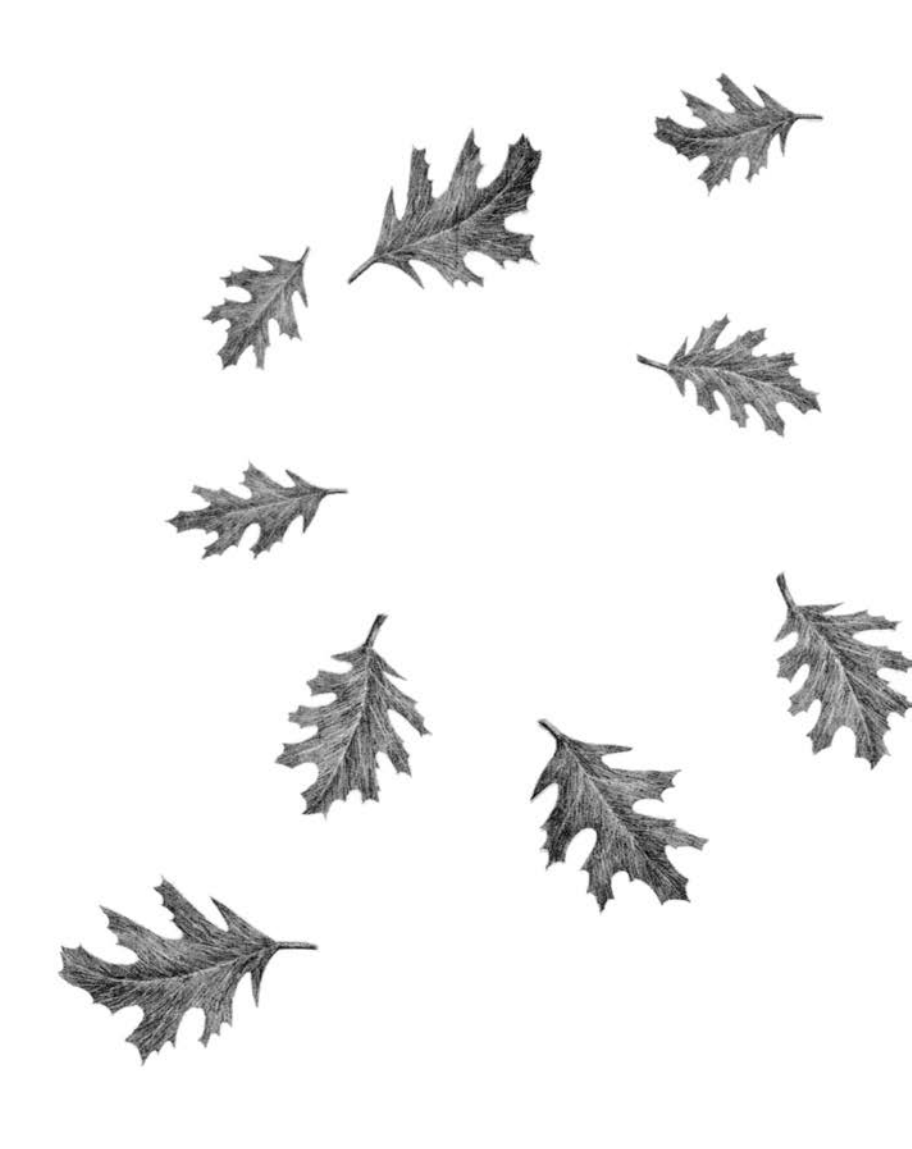
أمّا بالنسبةِ لي ، فقَد ذاعَ صيتي . أَلَمْ تتحقّق أمنيةُ مايف في قلبِ شجرةِ أمنياتٍ؟ أمَا عنَى ذلك أنّ أيَّ شيءٍ مُمكن؟ طبعًا ، كما دأبَ سكويبلز أن يُذكِّرني ، ما كانت لي مُطلقُ علاقةٍ بما جرى .

«هذه يا حمراء ليست قصَّةَ حواري ،» اعتادَ أن يقول .

لكن النَّاسَ مُفعمون بالرَّجاء ، واستمرّ طلبُ الأمنيات عقدًا تلو العقدِ .

ذاك شكّل لي بَركةً وعِبئًا في آن واحدٍ ، كلُّ تلك الأماني ، كلّ تلك السِّنين .

لكن جميعَ المخلوقات تحتاجُ إلى الأمل .



39

في النِّهاية توقّفتُ عن الكلام .

عجزتُ عن لجم الكلماتِ بمجرّدِ أن أخذَت تنسكبُ مني ، بدا ذلك أشبه بمحاولةِ إيقافِ هُبوب الرِّيح .

في الصّمتِ الذي خيَّم بعدَ ذلك ، شعرتُ كما لو أنّ العالَم قد حبسَ أنفاسَه .

لقد كسرتُ القاعدة .

أما ستيفن وسمر فبقيا يُحملقان بي بِفمَين مفتوحَين . لاحا كأنّهما تجذَّرا في باطنِ الأرض مثلي . لم ينبِسا ببنتِ شفةٍ بينما رحتُ أروي حكايتي .

ثمَّ فُتح بابُ بيت ستيفن .

«ستيفن؟» ناداه والدُه . «ماذا تفعل بحقِّ السَّماء يا فتى؟»

هبّ ستيفن واقفًا . «أنا . . . ها أنا قادِم بابا . أمم . . . تُصبحين على خير يا سمر .»

«تصبحُ على خيرٍ يا ستيفن ،» أجابت .

اندفعَ ستيفن إلى الشُّرفةِ ، ثم توقّف في منتصفِ الطريق . استدار لينظرَ إليَّ .

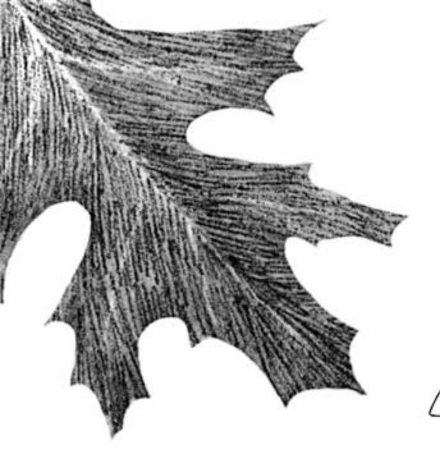
«شكراً؟!» قالَ بصوتٍ حائرٍ ، بالنبرةِ نفسِها التي قد تصدرُ منه لو أن بونغو خبزَت له فطيرة .

وصُفِقَ الباب خلفَه .

وقفَت سمر وهي تضمّ بطانيتَها إلى صدرها . «أنا أحلمُ حتمًا ،» قالت .

تَوجّهتْ إلى شُرفةِ بيتِها وبهدوءٍ فتحَت الباب .

«لا أتمنّى إلّا أنّني ،» أضافت مبتسمةً ، «أنَّني لم اضطَر إلى الاستيقاظِ من هذا الحلم .»



40

فورًا تقريبًا ، ندمتُ على ما فعلتُ .

لقد خرقتُ القانونَ . خرقتُه خرقًا عظيمًا .

لقد خاطبتُ النّاس بإصرارٍ وتصميم .

وليس فقط بضعَ كلمات . بل سكبْتُ نهرًا من الكلمات .

ما كُنتُ كتلك الضفدعةِ في صندوقِ البريد . فأنا لم أخرِق القانونَ عرَضاً .

خرقتُ القانونَ لأنّني سعيتُ وراء شيءٍ ما . أردتُ أن أحدِثَ فرقًا . أردتُ أن أقوم بعملٍ ما له معنى قبل أن أموتَ .

فعلتُ ذلك لنفسي ، من أجلي أنا .

بعد أن اختفى صِغارُ الحيوانات المَصدومين مع ذَويهم المَصدومين مثلهم في جُحورهم ، اعترفتُ بالهواجسِ التي راوَدتني لبونغو .

توقّعتُ أن تزعقَ في وجهي .

وبونغو بارعةٌ في الزّعيق .

بارعةٌ جدًّا .

بل حتّى يمكنُ القول إنَّها موهوبة في ذلك .

«لماذا فعلتُ ما فعلتُه يا بونغو؟» غمغمْتُ . «لماذا؟»

طارتْ بونغو إلى ما تسمّيه صحن الدار ، مسّدَت لحائي الخشن برأسِها الأملس .

«فعلتِ ما فعلتِه يا شجرتي الحكيمة المعمِّرة ، لأنّ لديكِ حكايةً لترويها .»

«لقد تصرّفتُ بحماقةٍ ،» قلتُ . «ولا يُفترض بي أن أكونَ حمقاء .»

«لَيسَ على تلك الدّرجةِ من الحُمق ،» أجابت بونغو . «مُتفائلةٌ فقط . وكلّ مخلوقٍ يحتاج إلى الأمل يا حمراء ، بما في ذلك الأشجارُ الحكيمةُ المعمِّرة .»




41



أقبلَ الصَّباحُ ببطءٍ مُثقلًا بالغيوم. وقبل الفجر مباشرةً نزل مطر خفيفٌ لاطفَ أوراقي إن لم يكن قد لطّف مزاجي.

بطريقةٍ غريبةٍ بدت الأرض مُشبعةً بالماء. لطالما كان الربيع موحِلاً طبعًا، إلا أن هذا بدا غيرَ عادي. إذ يعني أنَّه سيجعل يوم التمنّي غدًا فوضويًا.

تقدّم منّي رجلٍ مُسنٌّ ممّن يستيقظون باكرًا مستعينًا بعصا خَيزران. تريّث ليُعلّق قُصاصةَ ورقٍ زرقاء على غصني الأوطأ، مستخدمًا وصلةَ خيط. لم يجاهِر بأمنيته، لذا لم أستطع أن أعرفَ

ما هي . لكن بينما سلك طريقَه بحذرٍ خلال العشب النَّدي رأيت ابتسامةَ رضا ترتسمُ على وجهه .

لا رَيب في أنّني اليوم سأشهدُ المزيدَ من الأمنيات . أبكرَ العديدُ من النَّاسِ في القدومِ لِيَحظوا بغصنٍ يَسهلُ الوصولُ إليه .

سيكونُ الغدُ بلا شكٍّ آخر يومِ أمنياتٍ لي . فكيف إذًا ما زال يوميَ الأوَّل في تلقّي الأمنيات ، يومي المُغرقِ في البُعد مع مايف ، يبدو حديثَ العهدِ في قلبي كحداثةِ تَواصلي مع ستيفن وسمر في الليلةِ السابقة؟

خفّفَت سيارةٌ سرعتَها ، وتباطأت قربَ الرّصيف . رأيت ذراعًا ، ثم لطخةً ، ثم . . . طششش . . . وشيءٌ ما خبطَ جذعي .

طشش ، طشش ، تكرّر هذا مرَّتين ، ثم هدرَت السيارةُ واندفعَت منطلقةً وإطاراتها تنهبُ الأرضَ مولولةً .

كانت بونغو أوّل من أعلنَ عن الأضرار .

«بيضٌ نَيء ،» قالت . «أأفترضُ أن هذا لم يسبِّب لكِ الأذى؟»

«لَمْ أشعر بشيءٍ ،» أجبتُها .

اندفعَت عَناكب مَشعرانية وخبز طازج ويو الكبيرة خارجًا لمعاينةِ الحالةِ .

انزلقَت يو الكبيرة تحتَ شريطِ الشّرطةِ الأصفر، ولعقَت صفار إحدى البيضات المُنساب على جذعي. «ياي... ممم،» همهمَت. «نَيء، كما أحبُّه تمامًا.»

«يا... أنتِ، يا يو الكبيرة شاركينا الثّروة،» صاحت عَناكب مَشعرانية بينما انضمّت إليها هي وخبز طازج.

راقبَت أغنيس من سَطيحتها. «أنا أفضّلُ أكثر صغيرَ فأرٍ متلوٍ،» قالت. «هنيئًا مريئًا لَكُنَّ يا سيّدات.»

«يا لَها من مُفاجأة لطيفةٍ،» ما فتِئت يو الكبيرة تُهمهم ما بين لعقةٍ وأخرى.

«ذاكَ لم يكُن تصرّفًا لائقًا،» أعربَت بونغو عن امتعاضِها، «أولئكَ أناسٌ في أسوأ تصرّفاتهم.»

«مع ذلك،» قالت عَناكب مَشعرانية وهي تلعقُ كفّيها، «من المؤسفِ تركُ بيضٍ ممتاز يذهبُ هدرًا. سوء تصرُّفِ مخلوقٍ ما، قد ينتجُ عنه طعامُ مخلوقٍ آخَر.»

صدرَ عن يو الكبيرة صوتُ تجشؤٍ راضٍ، ثم عادت الحيوانات إلى بيوتها.

بعدئذٍ، فُتح بابُ بيت ستيفن. واقتربَ ستيفن مني، رأى قشورَ البيض مبعثرةً من حولي مثل قطعِ لعبة ألغاز، وسرعانَ ما عبسَ.

كانت سمر التّالية ، حقيبةُ الظهر مقذوفةٌ على كتِفها ، وكتبُها مضمومةٌ إلى صدرِها . قفزَت متجاوزةً بركةَ طينٍ وانضمّت إلى ستيفن .

«أغبياءٌ ،» تمتمَ وهو يشير برأسِه إلى بقايا البيض . «أنا آسف على هذا يا سمر . . .»

لكن سمر رفعَت يدَها . «ستيفن ،» قالت بصوتٍ هامِس . «ليلة أمس .»

هزّ ستيفن رأسَه هزًّا طفيفًا وعيناه مُسمّرتان عليّ .

«ليلة أمس ،» كرّرَ ، كما لو أنّهما كانا يتحدّثان بالرموز .

«الشّجرة!»

«الشّجرة!»

«سَمعتَ ما سمعتُه؟» سألته سمر .

«نعم ، سمعتُ!»

نظرَت سمر في عينيّ ستيفن مباشرةً . «سمعتَ . . . سمعتَ الشّجرة؟»

«نعم ، سَمعتُ الشّجرةَ .»

ندّت عن سمر هزّةُ رأسٍ بسيطةٍ . «لعلّها خُدعة؟ لعلّ أحدًا يُمازحنا؟»

«أَو ربّما كُنّا معًا نمشي في نومنا في اللحظةِ نفسِها ،» اقترحَ ستيفن . ثمَّ هزّ رأسه كما لو أنه يحاول إقناعَ نفسه . «نعم صحيح ، نمشي في نومِنا .»

«أسبقَ لكَ أن مشيتَ في نومكَ من قبل؟»

«لا ، لكن هناك مرّةً أولى لكُلّ شيءٍ .»

وَقفا أمامي ، ينظران إليَّ يَحدوهما الرجاء ، راغبَين منّي أن أقول شيئًا . أو على الأقلِّ هذا ما تَهيأ لي .

بَقيتُ صامتَةً . لقد بُحتُ بما لدي ، وندمتُ على فِعلتي .

«ستيفن ،» قالَت سمر بلطفٍ ، «مهما حدثَ ، لا يمكن أن نخبرَ مُطلقَ روحٍ عن هذا . اتفقنا؟»

«اتفقنا .»

«أبدًا .»

«نعم ، أبدًا .»

تنهَّدت سمر . «سيعتبِرُنا النَّاس مجنونَين .»

«ولا رَيب في أنّهم سيكونون مُحقّين ،» ردّ ستيفن .

رفعَت سمر ذقنها ونظرت إليَ . «يا شجرة؟ ألديكِ شيءٌ آخَر تضيفينه؟»

أنا لَمْ أنطِق بكلمةٍ .

تشاركَ ستيفن وسمر الابتسامَ . «تهيأ لي أنَّ الأمرَ يستحقُّ المحاولةَ ،» قالت .

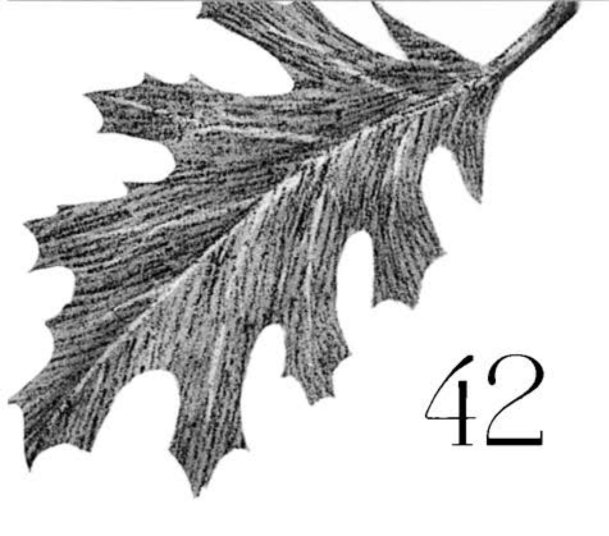
ثم توجّها إلى المدرسة جنبًا إلى جنبٍ .

خرج والدُ ستيفن إلى الشُّرفةِ . كان يمسكُ بيدهِ فنجان قهوةٍ . لمح ستيفن وسمر يمشيان معًا وعبَس .

بَعد لحظةٍ ، خرجَت أُمُّ سمر من البيت الأزرق ، متأبطةً حقيبةً ومفاتيحُها تُخشخِش . وفي الحال لاحقَت عينَي جارِها .

ومعًا راقبا بصمتٍ إلى أن اختفى ستيفن وسمر عن الأنظار وهما ماضِيَين جنبًا إلى جنبٍ .





42

ما تسنّى لي وقتٌ كافٍ لأُفكّرَ مليًا بالخطأ الذي ارتكبتُ، فقد تدفّق نحونا سيلٌ غيرُ منقطعٍ من الزّوار بينما مرّت السّاعات.

جاء أصحابُ الأمنياتِ المُبكرون على مدارِ اليوم. بنتٌ صغيرة أرادت عشرين جُرذ هامستر. البقّال عند نهاية الشّارع يأملُ بخوخٍ حُلو صيفًا كالمعتاد.

عادت المُراسلةُ المحليةُ. ألقَت نظرةً على الأماني الجديدة المتدلّية من أغصاني والتقطَت صورةً لقشور البيض المتكسّر على جذعي.

ثم أقبلَ ماكس وساندي لإزالةِ الشّريط الذي يحيط بي، ووافتهما فرانسيسكا. اصطحبَت معها الهرّين لويس وكلارك مُطوّقين بمقودَين من الجلد الرقيق. وكلّ هرٍّ منهما يضعُ لجامًا براقًا مُحرجًا.

ناقشَت فرانسيسكا مع ساندي وماكس قضيةَ البيضِ المكسور، وكلارك ولويس يدوران حول ساقيها. «طلبتُ من قاطعِ أشجارٍ الحضورَ لاحقًا ليعطيني سعرًا تخمينيًا،» قالت فرانسيسكا.

«هذا إذًا يعني أنّكِ مُصمِّمةٌ على قطعِها؟» سألتها ساندي، بصوتٍ راقني أن أفكّرَ أنَّ فيه خَيبةَ أملٍ.

«صحيح، حتمًا. أترَيان ذاكَ الوحلَ؟ وذاك الماء في الفناء؟» أشارت فرانسيسكا إلى العشبِ المنقوعِ بالماء.

«والسَّبَّاكُ أعلَمني أنَّ هذه الشَّجرةَ اللعينة تسدُّ بعضَ أنابيب التَّصريف، وأقلُّ نسبةٍ من المطر كفيلةٌ بتحويل الفناءِ إلى بِركة طينٍ عملاقة.»

«مع ذلك سيشعرُ الناس بالأسفِ وهم يرَونها تختفي،» قال ماكس، ثمّ مدّ يده إلى مقودِ كلارك وحاول أن يحرّرَ فرانسيسكا التي التفّ حولها المِقودان.

«أَعْرفُ. إنّها شجرةٌ معمِّرة جيّدة، لكن العواطفَ لا تدفع أجر السَّبّاكِ.»

أمسكَت ساندي لويس بينما حاولَت فرانسيسكا تحريرَ نفسها من المِقودين. «ماذا عن الحيوانات والطُّيور التي تعيشُ في

الشجرة؟» استفسرَت .

«آه ، هنا حيثُ أستعينُ برأسي الخبيرِ ،» ردَّت فرانسيسكا . «سنويًا ، تُخلي حيواناتُ الأُبوسوم والبوم والآخرون جحورَها وأعشاشَها في يوم الأماني . تصرّفٌ هو الأغربُ فعلاً ، كأنَّها تعرف ما سيحدث .» ثم قفزَت فوق الحبلَين الجلديين المُتشابكين . «أفترضُ أنَّ تلك المخلوقات لا تحبُّ أن يقلقَها أحدٌ . على أي حالٍ ، آملُ أن يأتيَ عُمَّال القطع في فترة متأخّرةٍ بعد ظُهرِ الغد . آنذاك تكون مُعظم طقوس تعليق الأمنيات قد انتهَت .»

«ماذا ستفعلين بكلِّ تلك الأماني؟» سألَتها ساندي .

«أضعُها في سلّة النفايات عندما لا يراني أحد . هذا ما أقوم به سنويًا . تلك الأشياء بمُجملها هي في النهاية ليست إلا محضَ هُراء .»

عايَنني ماكس وساندي بنظرةِ تعاطُف .

«أَعرفُ . . . أعرفُ . أنا لا أملكُ في جسمي عظمةً عاطفيةً واحدةً .» ثم التفتَت فرانسيسكا لتخاطبَ هرّيها اللذَين انهمكا يجذبانها نحو الجهة المعاكِسة .

«إذا كانت الكلابُ تتقبَّل المقاوِد ، لماذا تعتبران هذا تحديًا لكما؟»

ثم عادت وركّزت انتباهَها على الشرطيين . «لكن آن الأوان الآن ، بل آن ما هو أكثر من الأوان .»

«حَسناً ، سنُداوم على التردُّد إلى هنا غدًا ، ونبقي أعيُننا على مجرى الأمور . لا دليلَ على الشَّخص الذي نحتَ الكلمة . لكن مع البيض ، والنَّاسُ الآن عمومًا مغتاظون ، وإجراءات قطع الشَّجرة . . .» قالت ساندي وهي تهزّ كتفيها ، «لن يضرَّ أن نبقي أعيننا يَقظة .»

«شكرًا ،» قالت فرانسيسكا . «لا ضرورةَ لذلك ، لكنني أقدّر لكما اهتمامَكما .»

لمَح لويس وكلارك بونغو ، واندفَعا صوبَ جذعي . «هاه ، أيُّها المجنونان الماكِران!» صاحَت فرانسيسكا وهي تحاول كبحَ جِماحِهما .

زَمجرا على بونغو . وبدورِها نشرَت بونغو جناحيها مُهدّدةً ، وأطلقت أشرسَ نعيبٍ لديها .

تراجعَ لويس وكلارك إلى حيثُ الأمان بين ذراعَي فرانسيسكا . ومن جديد أصبحَت عقدةً متشابكةً من المقاودِ والهِررة .

ابتسمَت ساندي . «ربّما يُستحسَن أن تُبقي الهرّين في البيت غدًا يا فرانسيسكا .»



43

في عَصرِ ذلك اليومِ قابلتُ الجلادِين .

بما أنّني بلا أسنانٍ ، ما استوعبتُ قطّ الخوفَ الذي يبدو أنّه يصيبُ النَّاسَ من أطباءِ الأسنان . (تناهَت إليَ في أيامي المحادثاتُ التي يُشار فيها إلى استئصالِ عَصَب ، أو معالجةِ نخرٍ ، لكن في عالَم الأشجار لتلكَ الكلماتِ معانٍ مختلفة) .

بعد رُؤيةِ قاطعي الأشجار ومُعدّاتهم ، فهمتُ .

عندما تظهرُ لكم شاحنةٌ مجهّزة بمناشيرَ مع شيءٍ مشؤومٍ يُسمّى فرّامة ، حسنًا حينها تدركون أنّكم واقِعون في مصيبةٍ .

إنّما عليكم أن تُلاحظوا أن جرّاح الأشجار يُعتبر صديقًا عظيمًا

للأشجار . فأطرافُنا تحتاج إلى التّشذيب تمامًا كما تحتاجون إلى قصِّ أظفارِكم وشعركم ، على الرّغم من أنَّ هذا بالنسبة إلينا يقتصرُ على مرّةٍ أو مرّتينِ في السنةِ ، ويُدعى التّقليم .

وأنا دائمًا أشعرُ بأناقةٍ مميّزة بعد حصولي على تقليم جيّد .

لكن التقليمَ يجري عادةً بمجزّاتٍ خاصّة تشبهُ مقصًّا عملاقًا ، أو بمنشارٍ صغير مُتصل بدعامةٍ طويلةٍ . أمّا الفرّامات فهي عمومًا ليست جزءًا من الخطّة .

لم يُساعدني البتةَ انطلاقُ ثلاثة رجالٍ يعتمرون خوذاتٍ برتقالية إلى باب فرانسيسكا ، حيثُ أعلنوا أنّهم من مركز خدمةِ اقتلاع أخشابِ الأشجار .

«سَأَقُومُ بإيداعِ فضلاتي على تلكَ الخوذات السّخيفةِ ،» تمتمَت بونغو .

«لا يا بونغو ،» سارعتُ إلى القولِ مع أنَّ الفكرةَ كانت مُغرية .

«لِننتظر ونرى ما وراءهم . لعلّهم قَدِموا من أجل التّقليم .»

«أنتِ حقًا شجرةٌ متفائِلة .»

هذه المرّة ، رافقَت فرانسيسكا الرِّجال من دون اصطحابِ لويس وكلارك ، وتناقشوا حول الكلفةِ والتوقيتِ .

نعم صَحيح . تحدّثوا عن قَطعي واجتزازي ، على الرّغم من

أنهم تنعّموا بالظلّ الذي توفّره أطرافي الرائعة .

أوه ، فكّروا فقط في تبلّدِ المشاعِر لدى الآخرين .

أحدُ الرجالِ - قدّمَ نفسه باسم ديف - تسلّق سلّمًا ليتفقّدَ تجاويفي . راقبَته أغنيس وعَناكب مَشعرانية ويو الكبيرة بحذرٍ ، وهنَّ على أُهبةِ الاستعداد للدّفاع عن صِغارهن .

«لديكِ بعضُ المَخلوقاتِ الحيَّة هنا يا سيّدتي ،» أعلنَ .

«نعم . . . نعم ، أَعْرفُ ،» أجابَت فرانسيسكا . «سنويًا بانتظامٍ متناهٍ .»

طارت بونغو إلى بقعةٍ قريبةٍ من أغنيس . «أُلقي فضلاتي مرّةً واحدةً فقط ،» همهَمت من بين أنفاسها . «هذا كلّ ما أطلبه .»

«في حالةٍ كهذه ، نحن ننصحُ بقطعِ الأشجار في أواخر الخريف . إنّه على الأرجح أقلُّ إزعاجًا للأعشاش .»

«لقد أوليتُ هذه المسألةَ اهتمامي .» ردّت فرانسيسكا وهي تهزّ رأسها ويداها على وركيها . «الحيوانات والطّيور تنطلقُ جميعها بعيدًا عن هنا في أوّل يومٍ من شهر أيار . إنّه كما تعلمون يوم الأمنيات .»

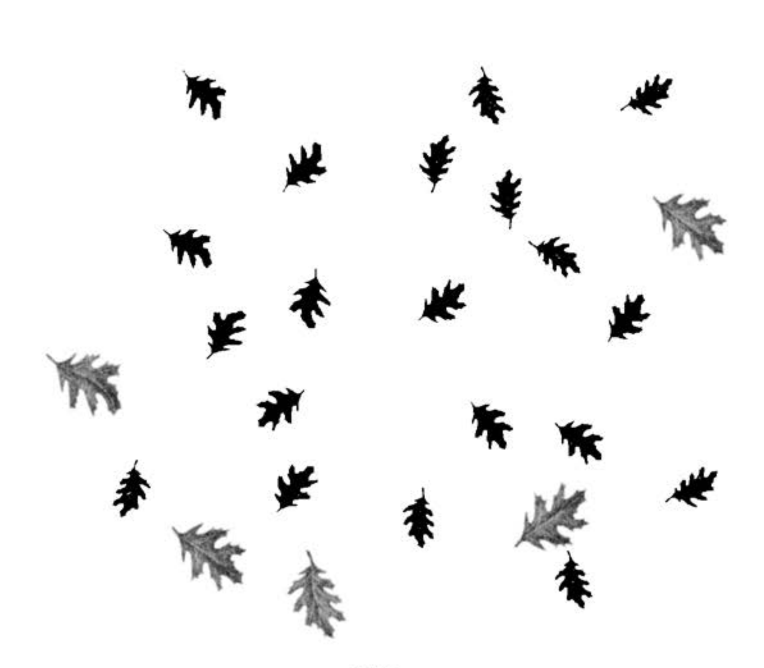
حكّ ديف ذقنَه غير المَحلوق . «يومُ الأمنيات؟»

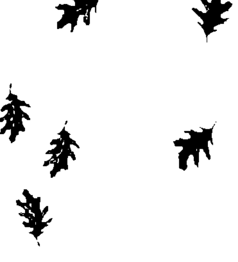
«يتمنّى النّاسُ في هذا اليوم ، ويعلّقون أُمنياتهم على الشّجرة .

والحيوانات والطُّيور لا تستسيغُ الهرجَ والمرجَ . إذا استطعتم أن تُنجِزوا عملَكم في عصر الغَد يكون التوقيتُ مثاليًا . أتعمَلون أيّام السَّبت؟»

«بالتأكيد .» هَزَّ ديف رأسَه . «يومُ الأمنيات ،» غمغَم . «لم يبقَ شيءٌ الآن لم أسمعْه .»

هزّت فرانسيسكا رأسَها . ربّتت جذعي . «إيه ، جُنون! لا أصدِّقُ أنني تحمّلتُ هذا الوضعَ طوال تلك السِّنين الماضية .»





44

في فترةٍ مُبكرة من ذلك المساء، توقّفَت فرانسيسكا أمام البيتين الأزرق والأخضر.

أمام بيتيَّ.

أحدهما بابُه أسود، والآخر بباب بُنّي.

أحدهما صندوقُ بريدهِ أصفر، والثاني صندوقُ بريدهِ أحمر.

قرعَت على كلّ من البابَين. وشرحَت ما تنويه لي.

قال الأهلُ في كلا البيتَين إنّهم يتفهّمون ما تخطّطُ له، إنّهم سيأسفون لرؤيتي أرحل. لكن ألَن يكون من المُريح أن يشهدوا

نهايةً لشغبِ يومِ الأماني؟ وغيابي يعني المزيدَ من أشعةِ الشّمس في غرف الجلوس، وكميةَ بلوطٍ أقلّ تحتَ الأقدام.

«طيِّب. اِسمحي لي في أدنى الأحوالِ أن ألقيَ قاذوراتي على الأهل،» زمجرَت بونغو. «مزيدٌ من أشعة الشّمس! يا لِوقاحتهم! ماذا عن نسبةِ أوكسجين أقلّ يا ناس؟ ماذا عن جمالٍ أقلّ؟»

«أشكركِ لدفاعكِ عنّي يا بونغو،» قلتُ. «لكن لا قاذورات.»

أمّا سمر وستيفن فلم يكونا متفهّمَين كثيرًا.

اِندفعا وراء فرانسيسكا بينما راحت تتجاوز بساطَ العشب. جذبَت سمر سترتَها. «يجبُ أن تستمعي إلينا،» هتفَت سمر. «لا يُمكنكِ أن تقطعي الشّجرةَ.»

«لا يُمكنني؟» استفسرَت فرانسيسكا. «ولِماذا يا صَغيرتي؟»

«لأن...» تدخّلَ ستيفن لاهثًا، «لأنَّ الشّجرةَ حيَّةٌ.»

«أَنا أعي هذا تمامًا،» قالت فرانسيسكا. «هي مِيزةٌ مُشتركة بين جميع الأشجار.»

تَريّثَت مُلقيةً نظرةً على الشّريط حول رقبة سمر. «كيفَ هذا، أنا أعرفُ ذلك المفتاح،» هتَفَت، «والشّريط.»

«أعطانيه غرابٌ.»

«بلا مزاحٍ؟ إنّها طيور ذكيةٌ تلك الغربان .»

مرّرَت سمر الشّريطَ من رأسِها وناولت فرانسيسكا المفتاحَ .

«أوه ، أنا لا أُريدُ ذلك الشّيء القديمِ ،» قالتْ وهي تُعيده .

«احتفظي به . لقد أعادَ لي بعضَ الذّكريات فقط . . . وهي ليست مهمّةً . إنَّه يفتحُ مفكَّرةً . كانت جدَّةُ جدَّتي مايف تحتفظُ بدفترِ مُذكّراتٍ بعد انتقالِها إلى هنا .»

«هذا إذًا ما يفتحُه ،» هتفَت سمر .

«أين هيٍ؟» سارع ستيفن إلى السؤال ، «المُفَكَّرة؟»

«في العلِّية ربّما ، أو لا ، إنَّها على الأرجح في السقيفةِ وراء بيت سمر . أخفيتُ الكثير من المُخلَّفات العائلية القديمةِ هناك .» ثمَّ ندَّت عنها ابتسامةٌ ساخِرة . «ما لم تكن تلك الأشياءُ قد عامَت وطفَت بعيدًا . الفناءُ غارقٌ بالماءِ الآن . وهذا ، بالمناسبة ، أحدُ الأسباب التي تعني أنَّ الوقتَ قد حان لنقولَ لهذه الشَّجرةِ وداعًا .»

مسحَت سمر دموعها . «أنتِ لا تستوعبين . الشَّجرة . . . إنَّها تقريبًا مثلَ البشر .»

«هذا لطيفٌ!» ربّتت فرانسيسكا رأسَ سمر . «لكن يا حُلوتي هي مجرّد شجرةٍ .» ثم جلّسَت كتفَيها . «عليَ الآن أن أطعمَ لويس

وكلارك. أستطيعُ سماعَهما من هنا يتذمَّران. وبانتظاري غدًا يومٌ حافلٌ بالعمل.»

وبينما هي تهمُّ بالمغادرة تقدّم ستيفن وواجهَها. «قبلَ أن تذهبي،» بدأ بصوتٍ حازم، «استمعي فقط.»

التفتَ نحوي. «قولي شيئًا،» وجَّهَ لي الأمر.

«رجاءً يا شجرة!» توسَّلت سمر.

بقيتُ صامتةً.

ماذا تبقّى هناك لأقولَه؟

نقّلت فرانسيسكا عينَيها من ستيفن إلى سمر ومن سمر إلى ستيفن. «يا أطفال،» قالت، «لعلّ ألعاب الفيديو تلك التي تُحبّان أن تلعباها قد شوَّشت دماغيكما.»

«تكلَّمي يا شجرة،» ألحَّ ستيفن.

صمتُّ.

«إنَّها قادرةٌ على الكلام،» أخبرَت سمرُ فرانسيسكا. «كلماتٌ حقيقيةٌ. روَت لنا حكايةً عن مايف.»

فرانسيسكا، وللحظةٍ قصيرة تردَّدت. نظرَت إليّ. «تعنيان بطريقةٍ رمزيةٍ طبعًا. تهيأ لكما أنَّ الشجرةَ تُخاطبكما. الأوراقُ همسَت وما إلى ذلك.»

«أخبرَتنا عن التَّجويف ، وعنِ الطِّفلةِ الرَّضيعة .»
طرفَت عينا فرانسيسكا . «الطِّفلةُ الرَّضيعة!»
«نعم ،» أكّدَت سمر . «الرَّضيعةُ المنبوذةُ .»
لمرّةٍ أخرى تريَّثت فرانسيسكا . «أوه طبعًا ، لقد رويتُ قصةَ العائلةِ تلك مِن قبل . ولا رَيب في أنّكما سمعتماها من أحدِ الجيران .»
هَزَّ ستيفن رأسَه نفيًا . «بل سمعناها من الشَّجرةِ .»
«أوه يا ربّي!» هَمهمَت فرانسيسكا . لوَّحت بيدها أمامَ وجهِها . «أنتُما تُرهقاني . كم يُسعدني أنَّ أيامَ رِعايتي للأطفالِ قد غَدَت ورائي . اسمعاني جيِّدًا ، نالا قسطًا كافيًا من ليلةِ نومٍ هَنيء ، أَتفهمان؟ أو ربَّما حاوِلا الحصولَ على استشارةٍ ما .»
وبأسرعِ ما يُمكنها شقَّت فرانسيسكا طريقَها عبر بساطِ العشب ، والطينُ يتكَتلُ على حذائِها .
«فرانسيسكا؟» ناداها ستيفن .
«إنّها مجرّد شجرةٍ يا أطفال ، رَدِّدا من بعدي : إنّها مجرّد شجرةٍ .»
«أنا أتساءلُ فقط إن كان في وسعنا أن نبحثَ عن المُفَكَّرة .»
التفتَت مُلقية نظرةً من فوقِ كتفها . «مُفكَّرةُ مايف؟ افعلا ما

تشاءان . هذا إذا لم تكن تحتَ الماء الآن ،» قالت وهي ترفع يديَها . «فقط . . . لا مزيدَ من جنونِ الأشجار هذا . أتسمعان؟»

عندما عادَت فرانسيسكا إلى بيتها ، رمَقني ستيفن وسمر بنظرةِ لوم . «لماذا لم تقولي شيئًا؟» سألتني سمر .

لأنّ ذلك كان تصرّفًا أحمق .

لأنّه لا يُفترض بي أن أتكلّم .

لأن . . .

مشى ستيفن وسمر بعيدًا عني والهزيمةُ تبدو عليهما . ولم يكونا قد ابتعدا كثيرًا عندما توقّفَت سمر والتفتَت إلى ستيفن .

«حَدثَ شيءٌ اليوم ،» قالتْ . «النَّاسُ في المدرسة كانوا... يتصرَّفون بغرابةٍ . يتحدَّثون عني ، يتهامسون . بل حتّى يتبادلون تمريرَ الملاحظاتِ في ما بينهم .» ضيَّقَت عينَيها . «أنتَ لم تخبر أحدًا بشيء أليس كذلك؟ أعني عمّا حدث ليلةَ أمس؟»

«طبعًا لم أفعل .»

«في هذهِ الحالة لا أدري ما كان يجري .»

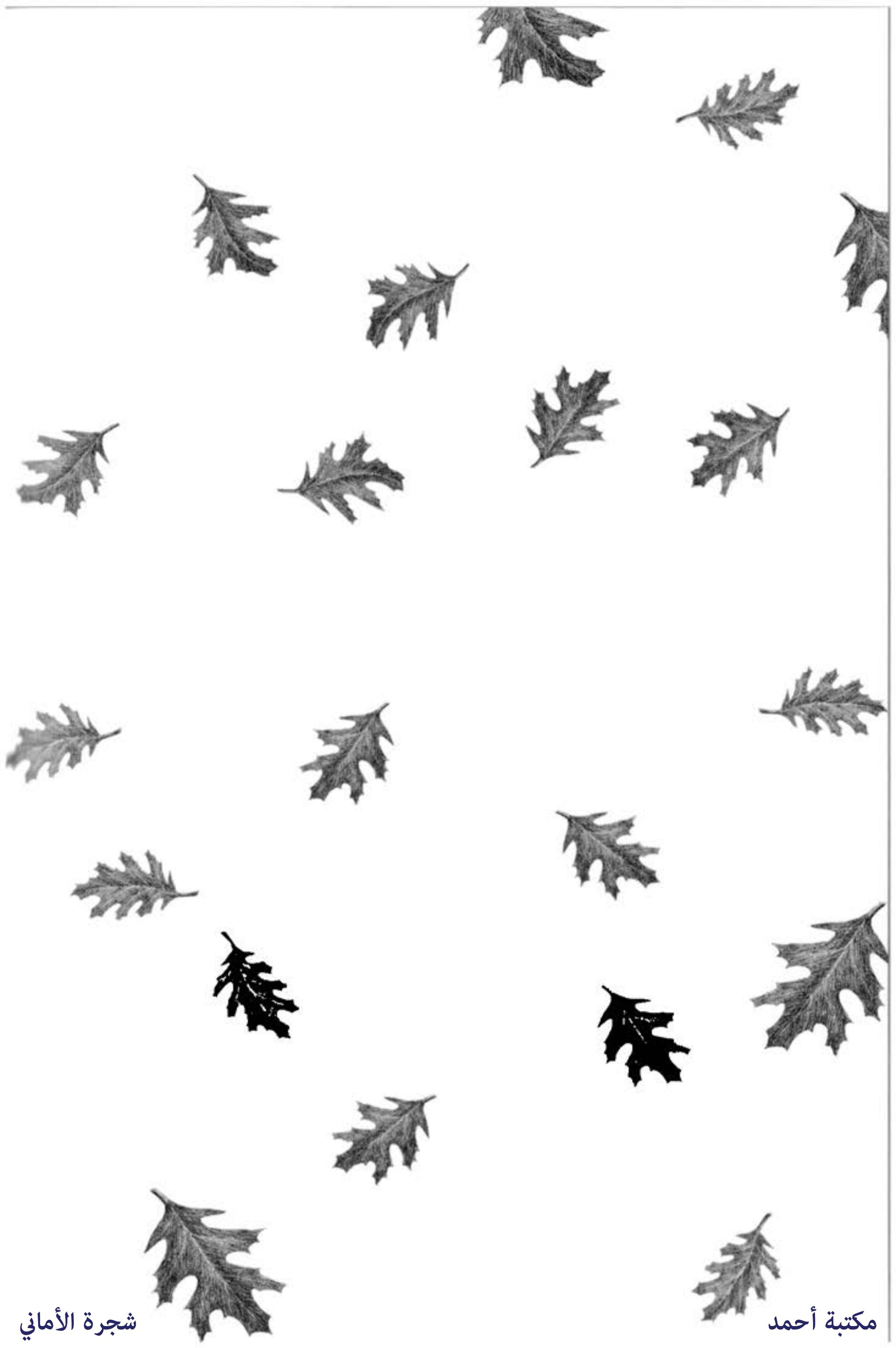
«أنتِ على الأرجح تتخيَّلين الأشياء .»

«لا أعتقدُ . أعني ، أنا مُعتادةٌ على تهامُس الآخرين عنّي . على تصرُّفِهم بلؤمٍ معي . أمّا هذا فمختلفٌ .»

«الأشياءُ ليست دائمًا كما تبدو عليه ،» ردّ ستيفن وهو يبتسمُ ابتسامةَ تعاطفٍ . «تعالَي ، علينا أن نذهبَ ونتفقّد السقيفةَ .»

راقبتُ الاثنين يتّجهان نحو فناء بيتِ سمر الخلفي . كانا يُدردشان معًا . يَضحكان . يُصبحان صديقين ربّما .

لعلّي في النهايةِ لم أكن على تلك الدّرجةِ من الحُمقِ .



45

الأشجارُ لا تَنامُ ، لا تنامُ كما ينامُ البشرُ أو الحيواناتُ .

لكننا نرتاحُ .

لسوءِ الحظّ ، تملّصَت منّي تلكَ الاستراحةُ الليليةُ .

كنتُ مُفعمةً بالتساؤلات حولَ اليومِ القادمِ طبعًا .

إنّما ، أكثرُ من أي شيءٍ آخَر ، لم أرغَب في أن أُفوِّت لحظةً واحدةً من الحياةِ القليلةِ التي تبقّت لي .

أردتُ أن أتشرّبَ النجوم .

أردتُ أن أتحسّسَ وبرَ أجنحةِ صِغار البوم .

أردتُ أن أمدّ جذوري أبعدَ قليلاً قبل أن تنقضيَ الليلةُ .



أردتُ أن أُدلّلَ نفسي بشيءٍ من التأمّل الهادئ في الحياةِ والحبّ وما عناه ذلك كلُّه لي .

أردتُ أن أتفلسفَ .

«كنتُ أفكّر ،» قلتُ لبونغو . «لا مغزَى من قلقي من الغدِ . الغدُ لن يلبثَ أن يأتي .»

«حمراء!» هتفَت بونغو .

«أأنا شجرةٌ معمِّرة حكيمةٌ أكثرَ ممّا ينبغي؟»

صمتَت بونغو . تأمّلتني مدَّةً طويلة . «أبدًا ،» قالت . «لستِ أبدًا وعلى الإطلاق شجرةً معمِّرةً حكيمةً أكثر ممّا ينبغي .»

استقرَّت بونغو على ما تُسميه صحنَ الدار ، والعالمُ من حولنا ساكنٌ ووديعٌ .

«أترغبين في سماع طُرفة شجرةٍ؟» سألتُها .

«أهيَ مضحكةٌ؟»

«لا ، على الأرجح ،» اعترفتُ .

«إذًا ، لا أريدُ ، على الأرجح ، سماعَها .»

«ما الشّهر الذي لا تستسيغه الشّجرةُ أكثر من غيره؟»

«لا أدري . أيُّ شهرٍ هو؟»

«شهرُ حزّ - يران .» سكتُّ برهةً ثم أردفتُ ، «لأن الحزّ . . .»

«حمراء!» قاطَعَتني بونغو . «كالمعتاد ، لا ضرورةَ للتفسيرِ .»

لم نُدردِش مطوّلًا بعد ذلك . اتّضحَ لي أنني لا أحتاجُ إلى التحدُّث عن الحياةِ والحبّ وما عناه لي ذلك .

كان كافيًا بالنسبة لي أن أرى السّماءَ تتنمَّشُ بالنّجوم ، أن أشمَّ رائحةَ الأرض الرَّطبة المُحبَّبة ، أن أستمعَ إلى دقّات قلوبِ الصّغار الذين أستطيع أن أُبقيهم آمِنين ، ولو لليلةٍ واحدةٍ أخرى فقط .





46

انبلجَ صباحُ السَّبت نقيًا وباردًا . وحتى قبلَ أن تُعلِن الشّمس عن حضورها ، غادرَت الحيوانات وفصائلُ البوم الأمانَ الذي وفَّرته لها أوصالي .

عثرَت كلّ عائلةٍ منها على مأوى جديدٍ في الأشجار المُجاورة في الحَي نفسِه . كانت الظَّرابين ستبقى تحت الرواق . أسعدَني أن أعرفَ أنَّ سُكّاني باقون في الحَي .

واحداً بعد الآخر ، مرَّغَ سُكّاني أنوفَهم بي وهم يهمسون بكلماتِ الوداع . ونشجَ الأطفال ، خصوصًا هارولد وبتلة الورد

ووميض الضَّوء. حاولت الأُمهات أن تغلِّفَ وجُوهها بأقنعةٍ الشَّجاعة، لكن أصواتَهنّ المُرتعشة فضحَتهنَّ.

كان ذلك رهيبًا، إلا أن الانتهاءَ منه سرَّني.

لطالما كرهتُ لحظاتِ الوداعِ.

أما بونغو، فأصرَّت، من جهتِها، على البقاءِ معي حتّى النِّهايةِ المُرَّة.

وأدركتُ أنه لا فائدةَ تُرجى من مُجادلتها.

بحلولِ السّادسة صباحًا، كان ستيفن وسمر يجلسان معًا في شُرفة بيتِ سمر.

وفي السّابعة وصلَ ماكس وساندي. ركَنا سيارة الشُّرطة في الشَّارع وجلسا فيها يَرشفان القهوةَ ويأكلان الكعكَ.

وبحلولِ السَّاعة الثامنة جاء ثلاثةُ مُراسلين مُزوَّدين بمُكبِّرات الصَّوت وأجهزةٍ عجيبةٍ. صوَّروا كلمة «ارحلوا» بالفيديو. تحدَّثوا عن معناها، عن كيفَ أنّها غيّرت ما كان أحدُ الأحياءِ يألفه.

تطرَّقوا إلى الحديث عنّي أيضًا، شجرةُ الأماني المحكومةُ بالموتِ. ولم أستسِغ عبارةَ «المَحكومةُ بالموت».

لكن، لا بُدَّ من أن أعترفَ بأنها كانت تقريرًا دقيقًا.

جاءتْ فرانسيسكا في الثَّامنةِ والنّصف، تحملُ فنجان شاي

وتجرُّ سلَّمًا خشبيًا صغيرًا ، السُّلم الذي تضعه في الخارج سنويًا من أجلِ طالبي الأماني . عادت إلى بيتها ثم ما لبثَت أن رجعَت مصطحبةً لويس وكلارك من مِقودَيهما .

إلا أنهما لم يكونا مُتعاونين .

وبعد ذلك بدأ طقسُ الأماني .

طفلةٌ على كتفَي أبيها تمدّ يدها عاليًا .

امرأةٌ عجوز تساعِدها صَبيّتان .

جارٌ بعد جارٍ ، عديدٌ منهم سبق أن رأيتُهم يمرُّون بي على مرِّ السّنين .

أمنيةٌ ، تلو أمنيةٍ ، تلو أمنيةٍ أخرى .

بعضُها على قطعِ نسيجٍ مُلوَّن .

الكثيرُ على ورقٍ مُعلَّقٍ بشريطٍ أو خيطٍ .

بضعةُ جواربٍ .

قميصان .

ولباسٌ داخلي واحدٌ .

في بادئ الأمر ، أقبلَ النّاسُ في مجموعاتٍ صغيرةٍ ، أو جاؤوا واحدًا بعد الآخر . لكن فجأةً تغيَّر شيء ما . أصبح طُوفان النّاسِ غامرًا .

العديد مِنْهم كَانوا أطفالاً من المدرسةِ الابتدائية ، إضافةً إلى الأهالي والمُعلمين .

دزينةُ أطفالِ . خمسون طفلاً ، ثمّ مئةُ وأكثر .

بدا أنَّ كلّ فردٍ منهم يحملُ بطاقة فهرسةٍ . وكلّ بطاقةٍ منها مثقوبةٌ ، وهناك خيطُ ملفوفٌ بالثُّقب .

رحَّب ستيفن بالكثيرِ منهم ، وتبادلَ معهم ضربَ الأكفِّ .

عانقَ ناظِر المدرسة ، ولوّح بيده مُحيّيًا مُعلّمَه .

وبقيَت سمر جالسة على الدَّرج مع والديها ، وعلى وجهِها تعبيرٌ متسائلٌ .

ثمّ ، واحدًا إثرَ واحدٍ ، علّق الأطفالُ أمنياتهم على أغصاني .

ناظرُ المدرسة ومساعِده والبوابُ والمُعلّمون مَدّوا جميعهم يدَ المساعدة .

لم يسبق قطّ أن رزحَت أغصاني وفروعي تحت ثقلٍ كذاك .

وقلبي ، لم يسبق قطّ أن عمَر بتفاؤلٍ كذاك .

لأنّه ، بينما بادرَ كلّ طفلٍ وكلّ جارٍ وكلّ غريبٍ إلى تعليق أمنيته ، نظروا إلى سمرَ وأبويها ، وردّدوا العبارة نفسَها : «لا ترحلوا .»





47



خلالَ ساعةٍ، تلفَعتُ بكلمةِ «لا ترحلوا». وانتشر مزيدٌ من الأماني على الأرض أسفلَ مني، وتكوَّمَت كأنَّها الأزهار. بل حتى سلكَت الأمنياتُ طريقَها إلى الشُّرفاتِ، إلى الأسوارِ وإلى الرَّصيفِ.

كان قد تهيَّأ لي أنَّني قد رأيتُ كلَّ شيء، بعد مئتين وستَّ عشرة دَورة حياةٍ.

لكن تبيَّن لي أنَّ الكائناتِ مهما طعَنت في السنِّ ليسَت بمنأى عن الشُّعور بالدَّهشة.

سرعانَ ما أصبحَ من الواضحِ أنَّ أمنيةَ «لا ترحلوا» كانت فكرةَ

ستيفن . إذ بالتّعاون مع معلّمه عمل صفٌّ ستيفن سرًّا في يوم المدرسة السابقِ على إعداد بطاقاتِ الفهرسة . وانتشرَت الكلمةُ عن المشروعِ بسرعةٍ . وقبل مُضي وقتٍ طويلٍ انضمَّت المدرسةُ بأكملها إلى المشروعِ .

«هذه كانت فكرتكَ إذًا؟» قالت سمر لستيفن .

«تلقّيتُ مساعدةً جمّة ،» أجاب . «وإخفاءُ المهمّةِ عنكِ وإبقاؤها طيَ الكتمان كان معجزةً .»

التفَتَت سمر تنظرُ إلى أهلها . «لا أدري إن كان هذا سيغيّر شيئًا ،» قالت .

فنظر ستيفن بدورِه إلى أهلِه . «ولا أنا أيضًا .»

«لكن مع ذلك أشكركُم ،» بادرَت سمر إلى القول ، «على المحاولةِ .»

هَمَّ ستيفن بالإجابة ، لكن آنذاك تمامًا ، توقّفت شاحنةُ قاطعي الأشجار .

كانت خاتمةُ حكايتي تأتي .

حَسنًا ، أليسَت حكايةً جميلةً؟ وأنا ، أَلَمْ أكُن محظوظةً لأنّني شهدتُ يومًا كهذا اليوم؟

بَيْدَ أنَّ ستيفن وسمر رفضا أن يستسلما بتلك السُّهولة . جرَيا

مباشرةً إلى فرانسيسكا المُنهَمكة في تحرير ساقِها اليُمنى من مِقودي هرّيها المُتشابكين والمُلتفّين حولها .

«رجاءً ،» توسّلَت سمر ، «أنتِ ترين كم يحبُّ النّاسُ شجرةَ الأماني . رجاءً لا تقطعيها .»

«يا صَغيرتي ،» قالت فرانسيسكا بصوتٍ حازم ، «لقد حانَ الوقتُ .»

أخرجَ ستيفن شيئًا من جيبِ سُترته . كان مُفكّرةً صغيرةً بغلافٍ جِلدي .

«ها ، عثرتُما عليها إذًا ،» هتفَت فرانسيسكا ، «في السّقيفة؟»

«إيه صحيح ،» ردَّ ستيفن وهو يناولها المُفَكّرة الباليةَ .

«إنّها رطبةٌ قليلاً ،» قالت فرانسيسكا .

دسَّت سمر المفتاحَ مع شريطهِ الطويل المُتدلّي في راحة فرانسيسكا . «يجب أن تقرئي المُفَكّرة .»

«في يومٍ ما ربّما .»

«ماذا عن الآن؟» ألَحَّ ستيفن .

تنهَّدَت فرانسيسكا . «تحتاجان يا أطفال إلى هوايةٍ ما ، أتُدركان ذلك؟»

أدخلَت المفتاحَ في القفل الفضّي ، فتكتكَ القفلُ وفُتِحت



المُفَكَّرة . كانت الصفحاتُ صفراءَ والحبرُ باهتًا . «اسمحا لي أن أخمِّن . هذا عن شجرةٍ تستطيع أن تتكلَّم .»

«في الحقيقة ، إنَّه عن الحَي ،» قال ستيفن . «إنَّه عنَّا كلّنا .»

«رجاءً؟» توسَّلَت سمر .

«هذا لن يغيِّرَ شيئًا يا صغيرتي ،» أصرَّت فرانسيسكا .

«رجاءً ،» ردَّد ستيفن .

«أوه ، حسنًا .» دوَّرت فرانسيسكا عينيها . «ينبغي أن أنتظرَ الشَّباب إلى أن ينتهوا من تجهيزِ أدواتِهم . بالتأكيد . سأُلقي نظرةً على المُفَكَّرة . ربَّما عندئذٍ تتركاني بسلام .»

ذهبَت فرانسيسكا إلى شرفةِ بيت سمر وهي تسحب خلفَها لويس وكلارك ، جلسَت على أعلى درجةٍ هناك وبدأت تقرأ .



48

قطعُ شجرةٍ ضخمةٍ ليس مهمّةً سهلةً .

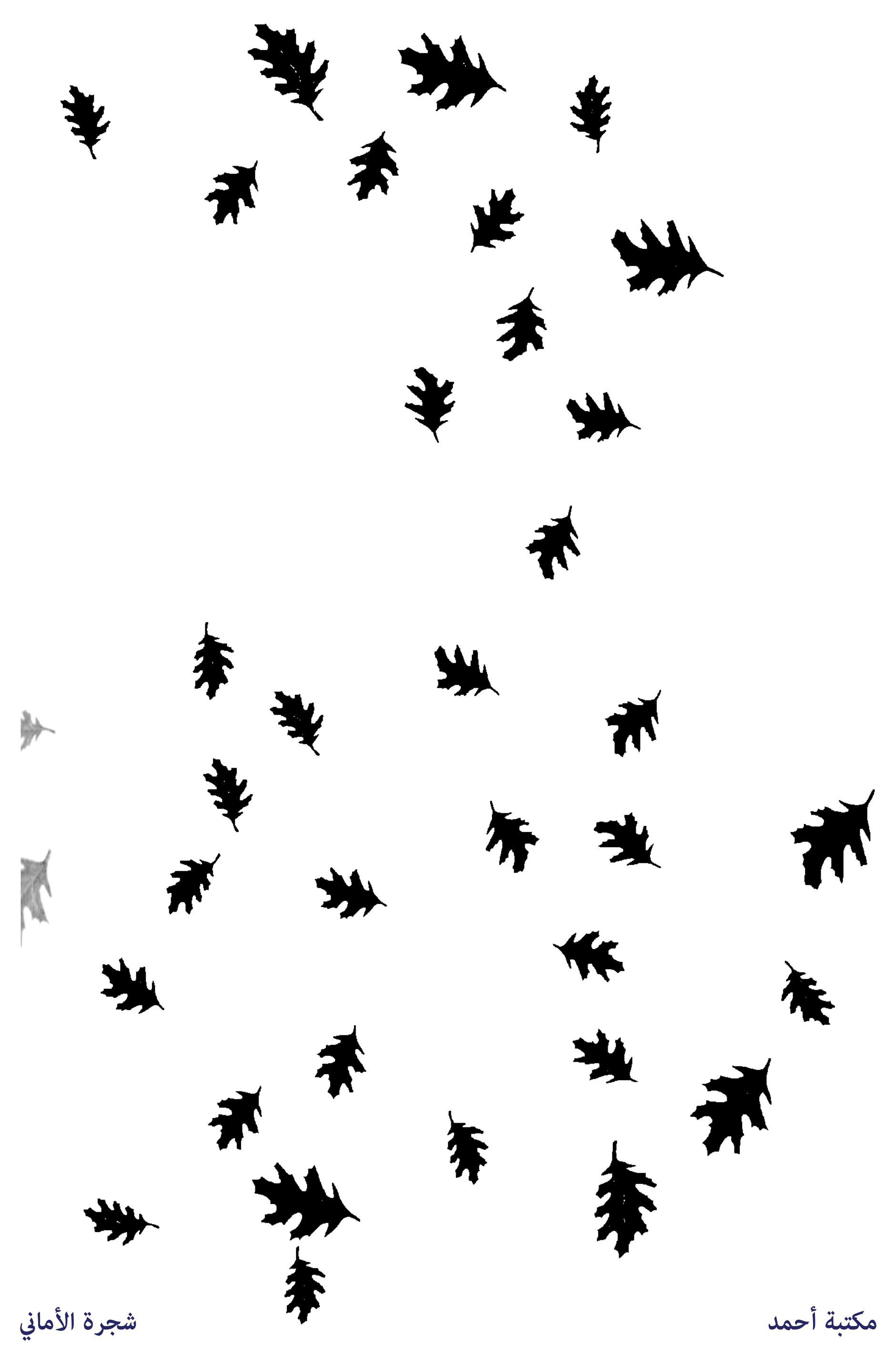
يتطلّب ذلك تخطيطًا حَذِرًا وأشخاصًا يعرفون ماذا يفعلون .

سبقَ لي أن رأيتُ أشجارًا في الحَي تُقطَع . وكنتُ على درايةٍ بالإجراءاتِ التي تُتخَذ .

بينما أبعدَ ماكس وساندي النَّاسَ إلى مسافةٍ آمنة ، راقبَ والِدا ستيفن من شُرفةِ بيتهما ، وراقبَ والِدا سمر من شُرفتهما . وفي هذه الأثناء وضعَ عُمَّال قطعِ الأشجار حِبالاً حول جذعي وتشاوروا في ما بينهم .

أحضرَ رجلٌ وامرأةٌ منشارًا ضخمًا ، وتلَته فرّامةُ القَرمةِ .
بدَت الفرّامةُ نوعًا ما مثلَ حيوانٍ جائعٍ .
في الحقيقةِ ، بدت كثيرًا مثلَ حيوانٍ جائعٍ .
«هل أخلَت المخلوقاتُ هذه الشجرة؟» صاحَ ديف مُخاطبًا فرانسيسكا .
«لم ألمح أيًا منها ،» ردَّت .
تَسلَّقَ ديف سلَّمًا وأحَدَّ النَّظرَ في تجاويفي بقدرِ ما استطاع . لم يظهَر عليه أنَّه لاحظ بونغو التي اختبأت في أعماقِ عشِّ البومِ السَّابق .
بقيتُ قابعةً بصبرٍ أنتظر مصيري بينما الدُّنيا من حولي تئزُّ . حشدٌ غفيرٌ . جيرانٌ سابقون ، وأصدقاءٌ جُددٌ تجمَّعوا كلّهم ، وتراءى لي أنّهم تزاحموا ليودِّعوني .
قُرْبَ الإفريز كان بعضُ الأطفال يَعزفون الموسيقى .
لا أدري ما إذا كانت موسيقى جيِّدة . لكنَّها كانت حتمًا صاخبةً .
ثُمَّ أدركتُ أنَّها فرقة المرآب التي أحبَّتها بونغو .
بدا الحدثُ بأكمله أقرب إلى حفلةٍ ؛ حفلة وداع .
هناك كانت ، تحيطُ بي ، حديقتي البرِّية المُتشابكة والمُلوَّنة .

وهكذا استقرّ بي الرأي على أنّ مُغادرتي للدنيا على هذا النّحو
ليست طريقةً سيئةً جدًا .
ليست سيئةً مطلقًا .





49

كان مع ديف مُكبِّرُ صوتٍ ، وبوساطته ذكَّر الحشدَ بضرورةِ البقاءِ وراء الحواجز التي سبقَ أن نُصِبت .

«هذه شجرةٌ ضخمةٌ يا قوم ،» صاح . «وعندما نقطعُها لا نريدُ أن يرافقَها أحدٌ منكم .»

«بونغو ،» قلتُ بصوتٍ لا يسمعه أحدٌ سِواها ، «عليكِ أن تذهبي إلى مكانٍ آمِن . لقد سمعتِ ما قاله : أنا شجرةٌ ضخمةٌ . ولا تريدين أن تكوني في الطّريق عندما أسقط .»

«لن أذهبَ إلى أي مكان ،» ردَّت بهمسٍ عنيدٍ . «لا تقلقي . سأكون بخير ، لكنني باقيةٌ معكِ يا حمراء . وهذا قرارٌ نهائي .»

التفتَ ديف إلى عُمّاله . «حسنًا يا رِفاق . هيّا لِنبدأ هذا العرضَ .»

«رجاءً بونغو!» قلتُ بصوتٍ هامسٍ لكن ملحٌّ .

اقتربَ مني المنشارُ أكثر .

انتظرتُ مُتوقِّعةً سماعَ زئيرِ مُحرِّك المنشارِ المؤلم .

بدلاً مِن ذلك ، ملأ الفضاء من حولي صوتٌ نفَّاذٌ وحادٌّ ، شيءٌ يشبه أنينَ جروٍ وهسهسةَ هرّةٍ .

كان ذلك صوتُ حيوانِ أُبوسوم صغير .

كالسّهم ، اخترقَ الحشدَ الغفيرَ قافزًا على بساط العشبِ الموحلِ ، مارًا بديف وفريقه ، ملتفًا حول المنشارِ الهائل ، ومن تحت فرّامةِ القرمةِ ، وأخيرًا ، وباعتزازٍ متسلّقًا جذعي .

ذاك لم يكن سوى وميض الضَّوء .

صعدَ مباشرةً إلى مسكنهِ السَّابق واستقرَّ هناك ، رأسُه المُنمنم بارزٌ خارجَ التجويف . كان يلهثُ ويرتجفُ ويشهقُ . إلا أنه لم يبد عليه مطلقًا أنَّه مُعرَّض لخطرِ الإصابةِ بالإغماء .

«اشتقتُ إليكِ يا حمراء ،» قال بصوتٍ خافت جدًّا بحيث أن أحدًا لم يستطع سماعَه سوانا أنا وبونغو .

«أبعِد المنشارَ!» زعقَ ديف . «حيوانٌ لعينٌ ما تسلّق توًا الجذعَ .»

خرجَت بونغو من مكمنِها . «وميض!» همهَمَت . «لا يمكنكَ أن تكون هنا! هذا خطر . إنّهم على وشكِ أن . . . كما تعلم .»

«ولكن أنتِ هنا ،» أشار وميض .

خلال العشبِ تقدّمت عَناكب مَشعرانية يتبعُها صغارُها الآخرون . مضَت مباشرةً إلى تجويفِ الأُبوسوم ، حيثُ عاجلَت إلى توبيخِ وميض وهي تحتضنُه .

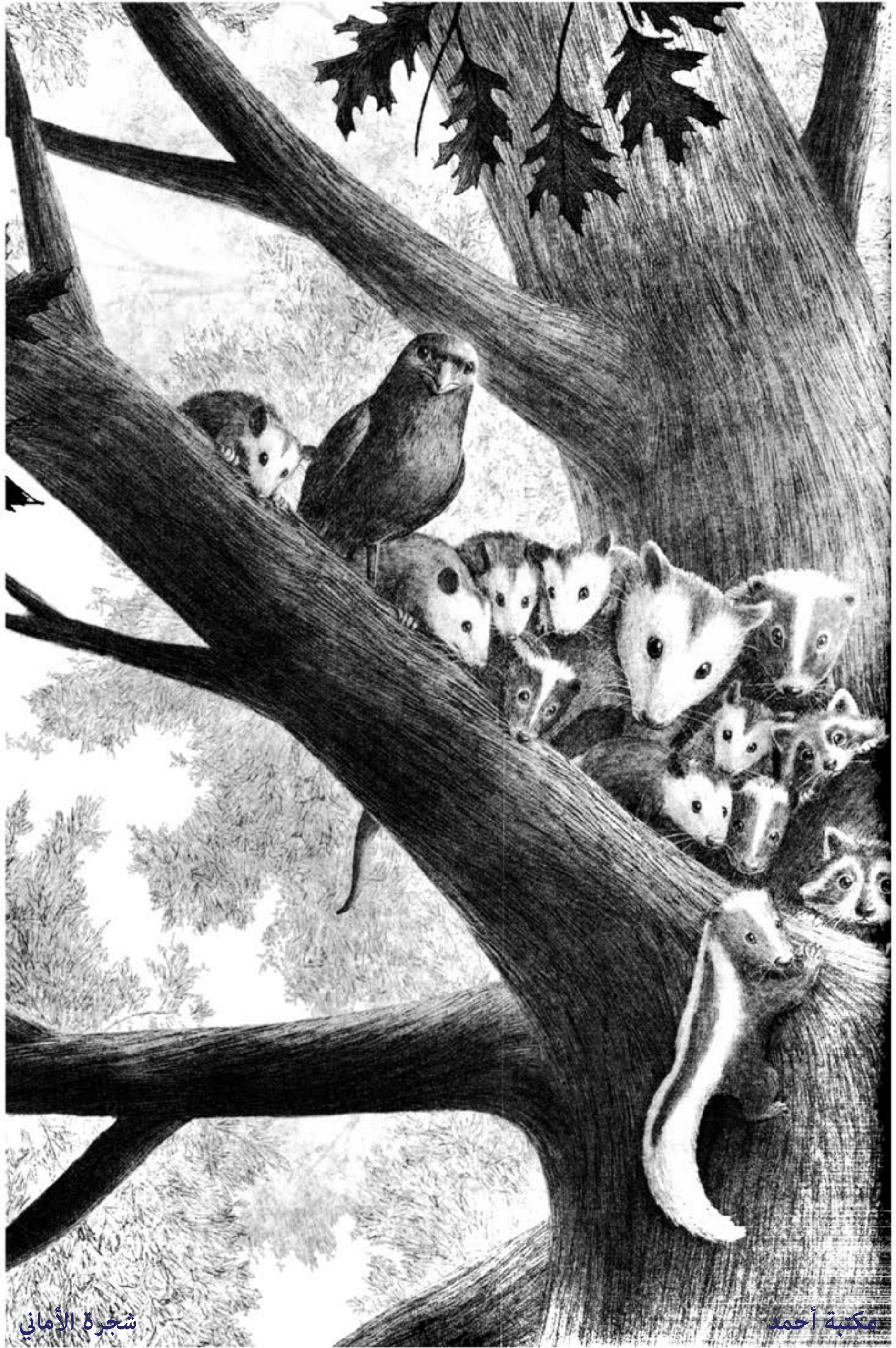
فجأة ، ظهرَ هارولد الصغير في السَّماءِ ، وجناحاه يخفقان بجنونٍ مثل فراشةٍ غير واضحة المعالِم . ثمّ تبعَته أغنيس وبقية ذرِّيتها . استقرّت مع أطفالها في عشِّها المعهودِ كما لو أنَّهم لم يُغادروا قطّ .

انتقلَت بونغو إلى ما تُسميه صحنَ الدَّار لتُفسحَ المجالَ لعائلةِ البوم .

وما لبثَت عائلةُ الـ يو أن تبعَت المجموعةَ وهي تخبُّ عبر العشب . آخرُ مَن انضمَّ إلى الموكب كان عائلةَ الظَّرابين التي جثمَت عند قاعدةِ جذعي .

سبعٌ من حيوانات الأُبوسوم ، أربعٌ من حيوانات الراكون ، خمسٌ من البوم ، وستة ظرابين تهادَت كلّها ، أسرعَت ، اندفعَت ، وخفقَت بأجنحتِها مغادرةً مخابئها المُختلفة ، وما جاءت إلا لتودِّعني .





سُكّاني .

أصدقائي .

هلّلت حشودُ النّاسِ . صفّقت . هتَفَت . ضحكَت .

جاهدَت فرانسيسكا لتستطلعَ ما يجري ، وعن غير قصد أفلتَت مِقودي الهرّين ، فسنحت الفرصةُ لكلارك ولويس كي يَهربا .

جريا نحوي مباشرةً ، تسلّقا جذعي لينضمّا إلى العصابةِ .

لم يكن ما فعلاه خاليًا من العيوبِ . فقد راحَت الحيوانات والطّيورُ تزمجرُ ، الكبار منها والصّغار ، ولكن بأصواتٍ مُنخفضة بحيث لم يسمعها أحدٌ من البشر .

«آخ!» هَمسَ فشارٍ ساخن بالزبدة .

«ذيلكَ في فَمي!» تشكّى طفلٌ من عائلة الـ يو .

«رائحتكَ كرائحةِ ظِربَان!» تذمّر صوتٌ .

«ولكن أنا ظِربَان ،» جاء الردُّ .

«مامي ، أيجبُ أن أخافَ من الهررة؟» سأل هارولد أُمَّه .

«كَقاعِدَةٍ ، نعم ،» أجابت أغنيس . «لكن هذا ظرفٌ استثنائي .»

خلعَ أحدُ قاطعي الأشجار خوذَته وحكّ رأسَه . «مستحيل أن

يحدثَ هذا ،» قال لديف . «هذه الحيوانات يجبُ أن يلتهمَ أحدُها الآخر .»

«إنّها أشبه بمعجزةٍ خارجةٍ عن المنطق ،» قال عاملٌ آخر . ثم أخرج هاتفَه الجوّال . «سأعرضُ هذا في الـ فيسبوك .»

بَدا أنَّ الكثير من الناس راودتهم الفكرةُ نفسُها . وبدأت آلاتُ التصويرِ تُتكتِكُ . واندفعَ المراسلون مُتجاهلين الحواجزَ ، ومكبِّراتُ الصوتِ اقتربَت كما لو أنَّ الجميع يأملون في إجراء مقابلةٍ مع المخلوقاتِ العجيبة .

وبونغو التي لطالما كانت مِن هُواةِ الإرسالِ اللاسلكي سعدَت بالاستجابة . «رقاقةُ بطاطِس رجاءً!» قالت لمُكبِّر الصّوتِ الذي لوَّحَ أسفلَ منها .

أومأَ ديف بعجزٍ لفرانسيسكا . «ما حكايةُ حديقةِ الحيوانات هذه يا سيِّدتي؟ كيف يُفترض بنا أن نقطعَ الشَّجرة؟»

وقفَت فرانسيسكا وهي تمسحُ دموعَها . لفَّت ذراعيها حول ستيفن وسمر . وبِرَوِيةٍ شقَّ الثلاثةُ طريقَهم خلال العشبِ الموحلِ .

عندما وصلت إليّ ، أخرجَت قصاصةً لتعليم الصَّفحات من مُفكَّرة مايف قبلَ أن تناولَ ستيفن المُفَكَّرة . كانت القُصاصة شريطةً من نسيجٍ مُقَلَّمٍ بالأزرق ، شريطةً باليةً وباهتةً .

كانت أمنيةَ مايف .

بعنايةٍ ، علّقت فرانسيسكا الشّريطةَ بغُصني الأوطأ الذي اكتظَّ بالأمنيات . حدّقَت مليًا وطويلًا بالحيوانات والطُّيورِ ، وخرخرَ لويس وكلارك بسعادةٍ .

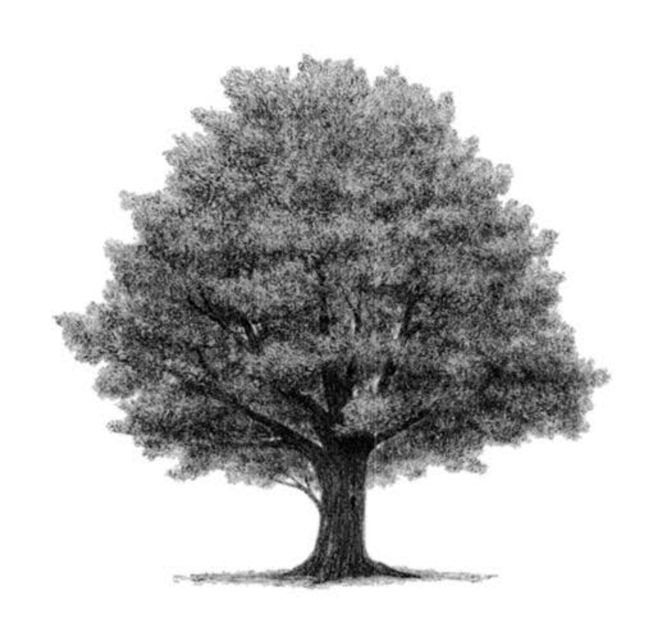
ران الصَّمتُ على جموعِ النّاسِ . كان الصَّوتُ الوحيد المسموعُ صوتَ حفيفِ أوراقي .

أخيرًا تكلّمت فرانسيسكا ، «اسمعوني ، أنا لا أُلقي الخطابات . هذه ليست طريقتي .» ربّتت جذعي . «لكن هذا ما لديَ ؛ إلى اليوم ، كنتُ قد نسيتُ تقريبًا أهميةَ هذه الشَّجرة المُعمِّرة لحكايتي العائلية . ومن مجرَّد النَّظرِ إلى الوضعِ . . .» أشارت إلى سُكّاني ، «هذه الشَّجرة مهمَّة أيضًا لعائلاتٍ أخرى غير عائلتي .»

ابتسم العديد من النّاس . وبعضُهم ضحكَ .

«أَكْرهُ هذه الكلمةِ ،» تابَعت فرانسيسكا وهي تمرِّر يدها على لحائي المُشوَّه . أكرهُها . ولكانت جدّة جدّتي مايف ستكرهها كثيرًا بقدرِ ما أكرهُها . هنا في هذا الحَي نحن أفضلُ من هذا .» ثمّ التفتَت ونظرت إلى والدي سمر ، «نحن لا نهدِّدُ الناس هنا . نحن نُرحِّبُ بهم .»

ثم مدَّت فرانسيسكا يدها وأمسكت يدَ سمر . «ستبقى هذه الشَّجرة هنا . وآمل أيضًا أن تبقى عائلتكِ هنا .»









50

في تلكَ الليلةِ ، بعد أن مرَّت عدَّةُ ساعاتٍ على تفرُّق حشود النَّاس ، تسلَّلَت سمر من بابِ البيت الأزرق الأمامي . وبعدَ لحظاتٍ لحِق بها ستيفن الذي لبثَ يراقبُ من نافذةِ غرفةِ نومه . جلسا بصمت تحت فروعي المُثقلة بالأمنيات .

كانت أقلُّ نسمةِ هواء تجعلُ بطاقات الفهرسة ترفرفُ كأنَّها سربٌ من العثِّ الضَّخم . وبدا أن شُعاع القمر قد عمَّ الأرجاء كلَّها : حطَّ على الأماني ، على فروعي ، على رؤوس صِغار البوم المُزغبة ، وفي عيون ستيفن وسمر الشاخِصة إلى الأعلى . كم كنَّا في منتهى الجمال ، ونحن نستحمُّ بالضوء الفضِّي الوديعِ .

«أتظُنين أنَّ عائلتكِ ستبقى؟» سألها ستيفن . «أعني بعد كلِّ ما أخذَ مجراه؟»

«لا أدري ،» أجابت سمر . «أتمنَّى هذا .»

انتفضَ النَّسيم . هذرَتِ البطاقات . رقصَت الأشرطةُ . وفلتَت قُصاصة ورق كرَّاسةٍ ، عُلِّقت على غصني الأوطأ بعقدة رخوةٍ بخيط صوفٍ أحمر .

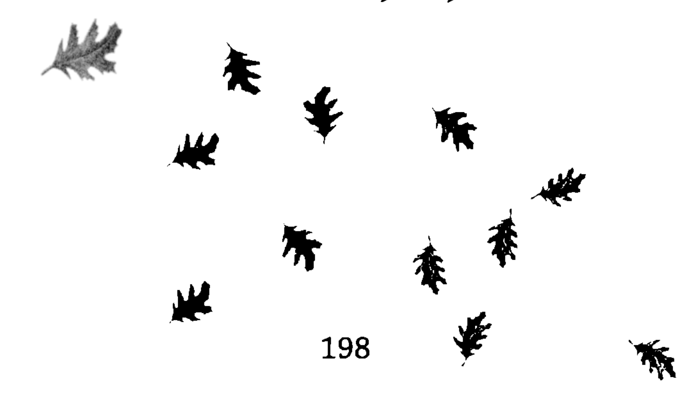
عاجلَت سمر إلى اختطافِها بينما طارت قربَها . حملَقت في الخربشة التي فيها ، ثُمَّ وقفَت ، وبعنايةٍ علَّقتها ثانيةً حيث كانت .

«ما الأمنيةُ التي فيها؟» استفسرَ ستيفن .

«إنسانٌ آلي غيرُ مرئي ينجزُ واجباتِ المدرسةِ المنزليةَ .»

«أشكُّ في أنَّها ممكنةُ التحقُّقِ .»

«صحيح!» اتكأت سمر على جذعي وابتسمَت . «لكن أيضًا يصدقُ هذا على شجرةٍ ناطقةٍ .»





51

لو أنَّ هذه حكايةٌ خرافيةٌ لقلتُ لكم أنَّه كان هناك شيءٌ سحريٌّ في يوم الأماني ذاك . أنَّ العالمَ قد تغيّر وأنّنا عِشنا بعدَه بسعادةٍ إلى الأبد .

لكنَّ هذه حياةٌ حقيقيةٌ .

والحياةُ الحقيقيةُ ، كأيِّ حديقةٍ غنيَّةٍ ، فوضَويةٌ وعَبثيةٌ . ما يعني أن بعضَ الأشياء تغيَّرت .

وبعضُ الأشياء ما زالت على حالِها . ولأنَّني من النَّوعِ المتفائلِ ، أبقى مُفعمة بالأملِ بخصوص المستقبل .

قرَّرَ أهلُ سمر ألَّا يرحلوا ، ليس قبل فترةٍ على الأقلِّ .

أصبح ستيفن وسمر صديقَين مُقرَّبين . وأحيانًا يُنجزان واجباتهما المدرسية عند قاعدةِ جذعي .

أمّا أهلهما فما زالوا مُتنعين عن التَّخالُطِ .

ولستُ واثقةً من أنّهم سيفعلون في يوم .

لم تعثر الشُّرطةُ أبدًا على الفتى الذي وشَمَ جذعي بكلمة «ارحلوا» . ولكن قبل أسبوعين رأيتُه يتسكَّع في الجوارِ ، ولفَتُّ انتباه بونغو إليه .

حسنًا ، لِنقُل فقط أنَّها أودَعت فوقَه كميةً كبيرةً من قاذوراتِها في ذلك اليوم .

وسُكَّاني عادوا إلى حيث ينتمون ، آمِنين في جحورهم وأوكارهم .

ما زالوا يتجادلون أحيانًا . إلا أنَّهم إلى الآن لم يأكل أحدهم الآخر .

قدَّمَت فرانسيسكا التماسًا لبلدية المدينة لتجعلَني «شجرة ميراث عائلي» ، هذا يعني أنَّني مَحميةٌ إلى الأبد .

وهي أيضًا على علاقةٍ جيِّدةٍ بسبَّاكٍ مَحلِّي يدرس طريقةَ التعامُل مع جذوري المندفعة بإلحاح .

لم يتوصَّل بعدُ لويس وكلارك إلى استيعابِ طريقة المشي بالمِقودين .

اتخذَت بونغو صديقًا جديدًا ، اسمُه هارلي ديفيدسن . ويُراودني شعورٌ بأنَّنا في المستقبلِ سنحتفي بمجموعةٍ جديدةٍ من كتاكيتِ الغربانِ .

أمَّا بالنِّسبة لي ، فقد وعدتُ بونغو بألّا أُعاودَ التطفُّلَ ثانيةً . أخبرتُها أن أيام تدخلِّي في شؤون الآخرين قد ولَّت .

وعلى الرغم من ذلك ، ها نحن ، أنا وأنتم .

ماذا يمكن أَنْ أَقول؟ أَنا أكثرُ ميلًا إلى الثرثرةِ من مُعظم الأشجار .

على أيِّ حالٍ ، إذا حدثَ ورأيتم أنفسَكم تقفون قربَ شجرةٍ تبدو ودودةً بشكلٍ خاصٍّ ، في يومٍ تشعرون أنّه ميمون على نحوٍ غير عادي ، لا يَضيركُم أن ترهفوا السَّمع .

الأشجارُ لا يُمكنها أن ترويَ النُّكات .

لكنَّنا بالتَّأكيد نستطيع أن نقصَّ الحكايات .

« ... إذا حدثَ ورأيتم أنفسَكم تقفون قربَ شجرةٍ
تبدو ودودةً بشكلٍ خاصٍ، في يومٍ تشعرون أنّه ميمونٌ
على نحوٍ غيرِ عادي؛ لا يَضيرُكم أن تُرهفوا السَّمعَ.
الأَشجارُ لا يُمكنها أنْ ترويَ النُّكاتِ،
لكنَّنا بالتَّأكيد نستطيعُ أنْ نقصَّ الحكاياتِ ... »

« حمراء » هي شجرة بلوط معمرة. شجرة كرّسها أهل الحي لتعليق أمنياتهم على أغصانها والأمل يحدوهم بتحقق ما يتوقون إليه. في هذا الكتاب تروي لنا حمراء حكايتها، وما مرّ عليها في حياتها المديدة، تؤازرها « بونغو » أنثى الغراب وصديقتها المقربة، إلى جانب عديد من المخلوقات التي تتخذ من فروعها وتجاويفها مساكن آمنة.

حكاية عميقة ودافئة وطريفة، أودعت فيها الكاتبة « كاثرين آبلغيت » نبض قلب حمراء بشفافية مرهفة، ليتسنى لها أن تطلعنا على مكنونها من وجهة نظر غير متوقعة.



دار المنى